
٩٠٠٠٠٣٦-٧

أثر الوقف

في نشر التعليم والثقافة

بحث مقدم

لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية

الذي تنظمه جامعة أم القرى

بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

في مكة المكرمة عام ١٤٢٢هـ

إعـداد

الدكتور / ياسين بن ناصر الخطيب

الأستاذ المشارك بقسم القضاء / كلية الشريعة / جامعة أم القرى

المجمع الفقهي الإسلامي - رابطة العالم الإسلامي

المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي من على الأمة بهذا الدين القويم، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينـا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، وبعد:

فإن الوقف من الأعمال الجليلة التي حث الإسلام على فعله لآثاره الطيبـة المسـتمرة، في الدنيـا والآخرة، ففي الآخرة الثواب الجزيل، وفي الدنيا لنتائجه الخيرة المعلومة الملموسة، في جميع مجالات الحيـاة عامة،وفي نشر التعليم والثقافة خاصة، منذ تشريع الوقف وإلى يومنا هذا، بل إن الوقـف في الوقـت الحاضر يعد من مستلزمات العمل العلمي والدعوي، إذا أراد له صاحبه أن يستمر وينمو.

عرف الناس -منذ القدم- الوقف في شكل من الأموال العقارية، التي تحبس ؛ لتكون أماكن للعبادة، أو تحبس لتكون منافعها وقفا على أماكن العبادة، دون أن يكون هناك توسع يشمل أغراضـا أخـرى للوقف.

ومما عرفه العرب قديما في هذا الشأن الكعبة المشرفة، التي بناها سيدنا إبراهيم وإسمـاعيل -عليـه السلام- لتكون مثابة للناس وأمنا، ومكانا للعبادة بالصلاة فيها، والتوجه إليها أثناء الصلاة.

"بعد ظهورالإسلام، اتخذ الوقف وضعا أوسع مما كان عليه قبل الإسلام، فبجانب الوقف علـى دور العبادة، كالمساجد شمل أغراضا أخرى: اجتماعية، وثقافية، واقتصادية، فكانت الأوقـاف علـى دور التعليم، وعلى العلماء وطلاب العلم، وعلى الفقراء والمساكين، وتوسع فيها أكثر مع تطـاول الزمـن، فشملت المستشفيات والمصحات، ودور الرعاية الاجتماعية، بل وشمل الوقف على الأهـل والذريـة، رعاية لمصالحهم،وتأمينا لهم مما تخبئه تقلبات الأيام،

وهذا التوسع في أغراض الوقف، كان له دور مهم في الحضارة الإسلامية، حيث قامت على أساسـه رعاية شئون العلماء وطلاب العلم، مما وفر لهم مناخا مستقرا، وكفل لهم حل حاجـاتهم ؛ ليتفرغـوا للإنتاج العلمي، بعيدا عن هيمنة الحكام والحكومات، مما تمخض عن ذلك التراث الزاخر، من معـارف الحضارة الإسلامية، في مختلف النواحي، كما اتاح للأوقاف أن تقوم بمـهام عـدد مـن المؤسسـات الحكومية، بل عدد من الوزارات المتخصصة في العصر الحاضر كوزارات الصحة والمعارف والشـئون

الاجتماعية في وقت لم تعرف فيه هذه الوزارات المتخصصة في فترة سابقة من تأريخ الإسلام[1] اهـ.

وقد قسم الفقهاء الوقف إلى نوعين: وقف تبرر، ووقف في غير تبرر.

والمراد بوقف التبرر: أن يقف الإنسان ماله في سبيل من سبل المعروف والطاعة، طلبا لبر الله تعالى وأجره، فهو يريد بهذا الوقف أن يبقى أجره ويستمر ثوابه ما بقي ذلك الشيء الموقوف، كوقف المساجد والمستشفيات ودور العلم، أو يرصد بعض ماله للإنفاق على هذه الأمور طلبا لبقائها واستمرار عطائها، ويسمى بالوقف الخيري.

وأما الوقف الذي لا يراد به التبرر: فهو وقف الإنسان ماله على نفسه أوعلى الأولاد والذرية طلبا لضمان بقاء الأموال وعدم التصرف بها: ببيع أو إهداء أو إرث أو وصية أو ماشاكل ذلك من العقود الناقلة للملكية.

وللتفرقة بين الوقفين نقول: إن ما كان على جهة عامة فهو الوقف الخيري وما كان على جهة خاصة فهو وقف ذري أو أهلي

وسوف نرى في الصفحات التالية كيف أن الوقف أسهم إلى حد كبير في بناء المدارس، وتخريج الأفواج من الطلاب، الذين أصبحوا فيما بعد من كبار العلماء في الأمة.

(ملاحظة) إذا جاءت كلمة (قلت) هكذا بين قوسين، فهي من كلام الباحث.

وسنتكلم في هذا البحث عن تعريف الوقف، وتأريخه قبل وفي الإسلام، وعن أثره في أظهر مراكز التعليم والثقافة: المساجد، والمدارس، والمكتبات.

---

(١) انظر ص.١٧ بحث للدكتور حسن عبد الله الأمين.المنشور في مجلة البنك الإسلامي للتنمية، المركز الإسلامي للبحوث والتدريب وقائع الحلقة لتثمير ممتلكات الأوقاف التي عقدت بجدة من ٢٠ / ٣ / ١٤٠٤هـ وحتى ٢/٤/١٤٠٤هـ.

تعريف الوقف

١- الوقف في اللغة:

قال ابن فارس في المقاييس: الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في شيء، ثم يقاس عليه، ومنه وقفت أقف وقوفا، ووقفت وقفي، ولا يقال في شيء أوقفت إلا أهم يقولون للذي يكون في شيء ثم يترع عنه: قد أوقف، قال الطرماح (الخفيف) جامحا في غوايتي ثم أوقف ت. رضا بالتقى وذو البر راض

وحكى الشيباني: كلمتهم ثم أوقفت عنهم أي سكت، قال وكل شيء أمسكت عنه فإنك تقول: أوقفت، وموقف الإنسان وغيره: حيث يقف.

والوقاف: الموافقة.

قال ابن دريد: وقيفة الوعل أن تلجئه الكلاب أو الرماة إلى صخرة، فلا يمكنه أن يترل، حتى يصاد قال (الطويل) فلا تحسبني شحمة من وقيفة مطردة مما تتصيدك سلفع وسلفع: كلبة...[١].

وفي المصباح: وقفت الدار وقفا: حبستها في سبيل الله، وشيء موقوف ووقف أيضا: تسمية بالمصدر، والجمع: أوقاف، مثل ثوب وأثواب[٢].

٢- الوقف في اصطلاح الفقهاء:

قال الحنفية: هو حبس العين على حكم ملك الواقف والتصدق بالمنفعة"[٣]

وقال المالكية: إعطاء منافع على سبيل التأبيد"[٤]

وقال الشافعية: حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف

---

(١) ص ١١٠٢

(٢) ٢/ ٣٤٦. مادة (وقف)

(٣) الدر المختار شرح تنوير الأبصار للحصكفي ٣/ ٣٥٧. وانظر حاشية ابن عابدين معه وتسمى رد المحتار.

(٤) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل للحطاب ٦/ ١٨. وانظر التاج والإكليل للمواق معه.

مباح موجود"[1]

وقال الحنابلة: هو تحبيس مالك مطلق التصرف ماله المنتفع به مع بقاء عينه بقطع تصرفه"[2]

وعرف الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة الوقف تعريفا قال عنه: إنه أصدق تعريف مصـور، جـامع لصور الوقف عند الفقهاء الذين قرروه، فقال: (هو منع التصرف في رقبة العين، التي يمكن الانتفاع بها مع بقاء عينها، وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداء وانتهاء).[3]

(١) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشربيني ٢/٣٧٦.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/ ٤٨٩.

(٣) محاضرات في الوقف محمد أبو زهرة ص. ٥

تـأريخ الوقف

سأتناول تأريخ الوقف عند غير المسلمين، ثم أذكر تأريخه عند المسلمين فأقول:

أولا: تأريخ الوقف عند غير المسلمين:

يستطيع الباحث أن يميز بين تأريخين للوقف:

الأول: تأريخ الوقف عند العرب في الجاهلية،

والثاني: تأريخ الوقف بالنسبة للأمم غير العربية.

فأما تأريخ الوقف بالنسبة للجاهليين:

فأهل الجاهلية لم يوقفوا شيئا تبررا، قال الإمام الشافعي -رضي الله عنه-: ولم يحبس أهل الجاهلية فيما علمته دارا ولا أرضا تبررا بحبسها، وإنما حبس أهل الإسلام اهـ[1].

ثم ذكر التحبيس الذي كان عند أهل الجاهلية فقال -وهو يناقش من لا يرى الوقف-: الحبس التي جاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإطلاقها، وهي غير ما ذهبت إليه، وهي بينة في كتاب الله عز وجل، قال: اذكرها، قلت: قال الله عز وجل (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)[2] فهذه الحبس التي كان أهل الجاهلية يحبسونها، فأبطل الله شروطهم فيها، وأبطلها رسول الله عز وجل بإبطال الله إياها، وهي أن الرجل كان يقول إذا نتج فحل إبله ثم ألقح فأنتج منه، هو حام أي قد حمى ظهره، فيحرم ركوبه، ويجعل ذلك شبيها بالعتق له، ويقول في البحيرة والوصيلة، على معنى يوافق بعض هذا، ويقول لعبده أنت حر سائبة، لي ولاؤك، وليس علي عقلك، قال: فهل قيل في السائبة غير هذا ؟ فقلت: نعم، فقد قيل إنه أيضا في البهائم: قد سيبتك.

(قال الشافعي) فلما كان العتق لا يقع على البهائم، رد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ملك البحيرة والوصيلة والحام إلى مالكه، وأثبت العتق، وجعل الولاء لمن أعتق السائبة، وحكم له بمثل حكم النسب اهـ.

---

(١) الأم ٤/ ٥٤.

(٢) ١٠٣ المائدة.

ولبيان معنى ما تقدم نقول: روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب -رضي الله عنه- قال: البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس.

والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي، يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب، والوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم؛ أن وصلت إحداهما بالأخرى، ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه، ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي)[1].

فالوقف الذي عرفته الجاهلية هو ما كان مقصورا على آلهتهم أو ما كان مسيبا بلا مالك، مما لم يكن فيه أي قصد للبر والتقوى.

وقد ناقش الأستاذ الدكتور محمد بن عبيد الكبيسي ما قاله الشافعي ﷺ فقال: ولعل الظاهر من كلامه -رضي الله عنه- يوحي: بأن المعنى الإجمالي للأحباس، لم يكن معروفا في الأمم التي سبقت الإسلام، إلا أن الأمر لم يكن كذلك ؛ فإن الأحباس كانت معروفة عند الأقدمين قبل الإسلام، وهي معروفة عند غير المسلمين بعد الإسلام، وإن لم تسم بهذا الاسم[2] اهـ.

(قلت) إن كلام الشافعي -رضي الله عنه- ليس فيه ليس ولا قصور، ذلك لأن الشافعي بين أولا أن الأحباس المنفية هي أحباس أهل الجاهلية، والجاهلية إذا أطلقت، فالمراد بها العرب قبل الإسلام، وليس المراد الأمم التي سبقت الإسلام كلها، وثانيا: فإن الأحباس المنفية في كلام الشافعي، هي الأحباس التي يراد بها التقوى والبر من الله تعالى، وهذه الأحباس التي يراد بها البر، لم توجد عند أهل الجاهلية، وعلى هذا فكلام الشافعي صحيح لا غبار عليه لأنه قال: و لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمته دارا ولا أرضا تبررا بحبسها، وقد ذكر الدكتور الكبيسي بعد ذلك: أن الشافعي ﷺ لم ينف وجود

(١) صحيح البخاري (٦٥)كتاب التفسير (١٣) باب ما جعل الله من بحيرة ٥، / ١٩١، ومسلم (٥١)كتاب الجنة (٣١) باب النار يدخلها الجبارون رقم الحديث (٥١/ ٢٨٥٦) ٤/ ٢١٩٠، وقد ذكر ذلك ابن كثير ﷺ في تفسيره، ٢/ ١٠٧

(٢) أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية للدكتور محمد الكبيسي ١/ ٢١.

الحبس مطلقا، بل نفى وجود الأحباس التي يقصد منها القربة والبر[١].

وأما تأريخ الوقف بالنسبة للأمم غير العربية قبل الإسلام، فنقول:

عرفت الأمم- على اختلاف أديانها ومعتقداتها -أنواعا من التصرفات المالية لا تخرج في معناها عن حدود معنى الوقف عند المسلمين، وذلك لأن جميع الأمم قبل الإسلام وبعده، كانت تعبد آلهة على الطريقة التي تعتقدها، وكان هذا داعيا لأن يكون لكل أمة معبد، ولكل دين مكان، ولكل عقيدة طقوس، ولكل ذلك أناس يقومون بها، ويختصون بأمرها،

ولما كانت المعابد قائمة منذ القدم، ثابتة في المجتمعات القديمة، كما هي في المجتمعات الحاضرة، موجودة منذ أن وجد الإنسان ؛ كان لا بد لهذه المعابد من عقار يرصد لها، وينفق من غلاته على القائمين بأمرها، والمعنيين بشئونها، ولا توجيه لهذا إلا على أنه وقف، أو في معنى الوقف، ولا أدل على وجود الوقف قبل الإسلام، من أوقاف إبراهيم الخليل ﷺ التي لا تزال موجودة ومعروفة حتى اليوم[٢].

(قلت) أراد بذلك بناء الكعبة وجعلها بيت الله الحرام.

وإليك بينان تأريخ الوقف عند بعض الأمم[٣].

الوقف عند قدماء العراقيين:

عرف العراقيون القدماء في العهد البابلي أنواعا من التصرفات المالية، التي لها شبه بالوقف، فكانوا يعرفون نوعا من حق الانتفاع، حيث كان الملك يهب لبعض موظفيه، حق الانتفاع من بعض أراضيه، وصورته أن يستغل المنتفع الأرض، بجميع أنواع الاستغلال المشروعة، ولكن من دون أن تنتقل ملكيتها إليه، ولهذا لم يكن له حق التصرف بها ببيع أو نحوه،[٤]

(قلت) هذا ليس وقفا وإنما هو إقطاع

---

(١) نفسه ١/ ٢٢.

(٢) أحكام الوقف للكبيسي١/٢٢ نقلا عن أنفع الوسائل ص. ٦٨.

(٣) كتاب أحكام الوقف ١/ ٢٣-٣٢ باختصار، وسابين نقل مؤلفه في الهامش بإذنه تعالى، وانظر محاضرات في الوقف للشيخ محمد أبو زهرة ص. ٥ وما بعدها، وأحكام الوقف للشيخ مصطفىأحمد الزرقاء ص. ١١-١٦.

(٤) انظر: تأريخ القانون د/ هاشم الحافظ ص. ١٦٤.

الوقف عند قدماء المصريين:

كما عرفت مصر - في تأريخها القديم - فكرة الوقف، فكانت الإقطاعيات ترصد على الآلهة والمعابد والمقابر؛ لترصد غلتها على بعض شؤونها، من إصلاح وإدامة، وتيسير إقامة الشعائر، والإنفاق على الكهنة والخدام، بقصد فعل الخير، والتقرب إلى الآلهة، ويوجد في المتحف المصري اليوم بعض اللوحات التي تشير إلى ذلك، ومن أقدمها اللوحة رقم(٧٢) دليل ماسبيرو، وعليها بعض النقوش المتضمنة، وقف عقار على بعض الكهنة في الأسرة الرابعة، وهي تحت رقم (٨٤٣٢) فهرس المتحف[١] ومنح رمسيس الثاني معبد (أبيدوس) أملاكا واسعة،[٢]

بل إن مصر عرفت الوقف الذري، فقدأنشأ (متى) في الأسرة الخامسة (مؤسسة) وكان هو الاسم الذي يطلق على هذا النوع من التصرف، وأوقفها لمصلحة أبنائه بعقد هبة، صدر منه لابنه الأكبر، وأمره بصرف الاستحقاقات لإخوته، من ريع الأموال على أن تكون الأموال غير قابلة للتصرف: من انتقال ملكيتها بعد وفاة أولاده إلى أولادهم، وأن تكون إدارتها للابن الأكبر من كل طبقة[٣]

الوقف عند الرومان:

وعرف الرومان نظام مؤسسات الكنيسة، والمؤسسات الخيرية، التي تقوم على رعاية الفقراء والعجزة، وهي كلها تتضمن معنى رصد مجموعة من الأموال ؛ لإنفاقها على وجه من وجوه البر والخير[٤] ويرى الرومان أن مثل هذه الأشياء، لا يجوز أن تباع، أو أن ترهن، جاء في مدونة جستنيان[٥] (الأشياء المقدسة، والأشياء الدينية، والأشياء الحرام، لا يملكها أحد، إذ ما كان لله لا يملكه إنسان)[٦]

---

(١) نقلا عن نشرة الأوقاف المصرية الموسومة ب (وزارة الأوقاف بين الماضي والحاضر)

(٢) تأريخ القانون المصري القديم للدكتور شفيق شحاته ص. ٩٠ وما بعدها.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) انظر بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني للدكتور صوفي حسن أبو طالب ص. ١٥٠.

(٥) جستنيان أو لوستنيان الأول ٤٨٣-٥٦٥م.
امبراطور بيزنطي تولى من ٥٢٧- ٥٦٥م ابن أخت يوستين وخليفته شن حربين كبيرتين استعاد بهما أفريقيا من الوندال، وإيطاليا من القوط الشرقيين.
الموسوعة العربية الميسرة، لمحمد شفيق غربال، دار الجيل ١٤١٦÷- ١٩٩٥م ص. ١٩٩١

(٦) انظر: مدونة جستنيان في الفقه الروماني تعريب عبد العزيز فهمي ص.٥٧

الوقف عند الجرمانيين:

كما أن للجرمانيين نظاما شبيها بأصل فكرة الوقف، ففيه يرصد المالك ماله، على أسرة معينة، مدة محدودة، أو إلى حين انقراضها، وقد تكون لكل الأسرة أو لبعضها، أو للذكور ومن بعدهم للإنـــاث، والأصل فيه: أن الوقف لا يباع، ولا يوهب، ولا تورث رقبته، وليس للمستحق فيه إلا الانتفاع، وهـذا هو الوقف الذري الأهلي بعينه.[١].

الوقف عند الفرنسيين:

في القانون الفرنسي نوع من التصرفات المالية، التي لها شبه بالوقف الذري الأهلـــي، فقـــد أبـــاح القانون أن يهب الأب، أو يوصي بعقار إلى ولده، بشرط أن ينتفع به مدة حياته، ثم ينقلـــه إلى أولاده من بعده، أو على أخ كذلك مثلا، ويسمى في القانون (الهبة المتنقلة) أما الوقف الخيري، فقد نص عليـه وعلى الغرض منه القانون صراحة فقال هو (رصد شيء محدود، من رأس المال على ســـبيل الـــدوام ؛ لعمل خيري عام أو خاص)[٢]

الوقف في النظام الأمريكي:

يعرف هذا النظام نوعا من التصرفات المالية، تسمى (الترست) وعرفه معهد القانون الأمريكي بأنـه (علاقة أمانة، خاصة بمال معين، تلزم الشخص الذي يحوز هذا المال، بعـــدة التزامـــات، تهـــدف إلى استغلاله ؛ لصالح شخص آخر، وتنشأ هذه العلاقة نتيجة للتعبير عن إنشائها)[٣] ويمكن تعريفه بعبـــارة أوضح بأنه (وضع مال في حيازة شخص معين يسمى: الأمين أو الوصي ؛ ليستغله لمصلحـــة شـــخص آخر يسمى: المستفيد أو المستحق).

ويحقق نظام الترست الأهداف التالية:

١- توفير الحماية للأرامل، وذلك بأن يعهد بالأموال التي يريد تركها لزوجته أو لذريته، إلى أمـين

---

(١) انظر الوقف من الناحية الفقهية والتطبقية / محمد سلام مدكور ص.٧ والوقف في الشريعة والقانون لزهدي يكـن ص. ١٨٤.

(٢) انظر المقارنات التشريعية، سيد عبد الله على حسين ٤/ ٢٠٤-٣٠٥.

(٣) القانون المدني المقارن، د / محمد لبيب شنب، مطبوع بالرونيو ص. ٦٧.

يتولى استثمارها، وتسليم ريعها لمستحقه، ويسمى (ترست السفيه أو الوافي).

٢- القيام بالكثير من الأعمال ذات النفع العام، التي تعتمد على تبرعات الأفراد والهيئات الخاصة، فقد لا يكون المتبرع ذا خبرة، أو ليس له الوقت الكافي، فينقل ملكية المتبرع به إلى أمين، أو مجلس أمناء ليقوموا باستغلاله في تحقيق الغرض المقصود، ويسمى (الترست الخيري) وقد يكون الأمين شخصا اعتباريا، أو شخصا طبيعيا، والأول هو المفضل ؛ لأنه لا يتأثر بعوامل الصحة والسفر والموت، وما إلى ذلك.ويتميز الترست الخيري عن الترست غير الخيري: بأن الخيري يجوز أن يكون مؤقتا أو مؤبدا أما غير الخيري فلا يكون إلا مؤقتا[١].

مقارنة بين الوقف الإسلامي والوقف عند غير المسلمين.

بعد أن رأينا حال الوقف عند غير المسلمين فنقول: إن جميع الأوقاف التي أوقفها غير المسلمين، لا تعدوا أن تكون أوقافا على دور العبادة، أو على الأقل ليس فيها شيء من طلب البر والتقوى من الله تعالى، كما أنه ليس فيها شيء مرصود للعلم أو للثقافة ولا غيرهما من المجالات، بينما نجد أن الوقف في الشريعة الإسلامية لم يحصر في مكان ضيق أوفي مجال واحد، بل شمل الكثير من النواحي الحضارية: التعليمية والثقافية والصحية والعسكرية والاجتماعية وغير ذلك من النواحي التي بيناها والتي تفيد المجتمع في مجالات حياته، علاوة على ذلك فإننا نجد أن الوقف الإسلامي شمل المناطق الإسلامية التي كانت ضمن الخارطة الإسلامية، وكل ذلك دليل على أن للوقف قيمته العظيمة وعطاءه المستمر.

ثانيا: تأريخ الوقف عند المسلمين:

أول وقف في الإسلام:

وأول وقف في الإسلام، هو مسجد قباء، الذي بناه النبي ﷺ حين قدومه مهاجرا إلى المدينة، قبل أن يدخلها ويستقر بها[٢]،

ثم المسجد النبوي بالمدينة، دار هجرة النبي ﷺ الذي بناه النبي ﷺ في السنة الأولى من الهجرة، عند

(١) القانون المدني المقارن د/ محمد لبيب شنب ص. ٧٧.

(٢) سيرة النبي ﷺ لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٢/١١١.

مبرك ناقته، لما قدم مهاجرا من مكة إلى المدينة[١]،

وأول وقف خيري عرف في الإسلام، هو وقف النبي ﷺ لسبع حوائط -بساتين- في المدينة، كانت لرجل يهودي، اسمه مخيريق، قتل على رأس اثنين وثلاثين شهرا من مهاجر رسول الله ﷺ، وهو يقاتل مع المسلمين في أحد، وأوصى: إن أصبت -أي قتلت- فأموالي إلى محمد، يضعها حيث أراه الله تعالى، فقتل يوم أحد -وهو على يهوديته- فقال النبي ﷺ (مخيريق خير يهود) فقبض النبي ﷺ تلك الحوائط السبعة، فتصدق بها -أي وقفها-[٢] فهي عامة صدقات رسول الله ﷺ[٣]

وعن عمرو بن الحارث ختن رسول الله ﷺ أخي امرأته قال: والله ماترك رسول الله ﷺ دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضا تركها صدقة[٤].

(وعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ جعل سبعة حيطان له بالمدينة على بني المطلب وبني هاشم)[٥]

وقد حبس أبو بكر ﵁ رباعا له بمكة وتركها فلا نعلم أنها ورثت عنه، ولكن يسكنها من حضر من ولد ولده ونسله بمكة، و لم يتوارثوها، فإما أن تكون صدقة موروثة، أو تركوها على ما تركها أبو بكر ﵁، وكرهوا مخالفة فعله فيها، وهذا عند الفقهاء شبيه بالوقف، وهي مشهورة بمكة[٦]،

وحبس عمر ﵁، فعن ابن عمر ﵄ قال: أصاب عمر مرة أرضا بخيبر فقال: يا رسول الله إني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني ؟ فقال رسول الله ﷺ (إن شئت حبست أصلها وتصدقت بثمرها) فجعلها عمر ﵁ لا تباع، ولا توهب، ولا تورث، تصدق بها على الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، وفي الرقاب، والغزاة في سبيل الله، والضيف، لا جناح على من وليها، أن يأكل منها بالمعروف، وأن يطعم صديقا غير متمول منه، وأوصى به إلى حفصة أم المؤمنين، ثم إلى

(١) سيرة النبي ﷺ لابن هشام ٢/ ١١٤. وانظر الوقف في الفقه الإسلامي ص.١٤ بحث منشور من قبل البنك الإسلامي للتنمية (إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف) المركز الإسلامي للبحوث والتدريب ص. ١٤

(٢) الوقف في الفقه الإسلامي ص١٤. وانظر الإسعاف في أحكام الأوقاف للعلامة برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي ص. ٥.

(٣) الإسعاف للطرابلسي ص.٥.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٦/١٦٠.

(٥) المصدر نفسه ٦/ ١٦٠. وقال: أخرجه البخاري.

(٦) سنن البيهقي ٦/ ١٦١ .

الأكابر من آل عمر، قال جابر بن عبد الله: لما كتب عمر بن الخطاب ﷺ صدقته في خلافته، دعا نفرا من المهاجرين والأنصار، فأحضرهم ذلك، وأشهدهم عليه، فانتشر خبرها، قال جابر: فلم أعلم أحدا كان له مال من المهاجرين والأنصار إلا حبس مالا من ماله صدقة مؤبدة، لا تشترى أبدا، ولا توهب، ولا تورث.[1]

ويروي الطرابلسي عن إسماعيل بن أبي حكيم قال: شهدت عمر بن عبد العزيز – ورجل يخاصم إليه في عقار حبس، لا يباع، ولا يوهب، ولا يورث، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف تجوز الصدقة لمن لا يأتي، ولم يدر أيكون أم لا ؟! فقال عمر ﷺ: أردت أمرا عظيما، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أبا بكر وعمر كانا يقولان: لا تجوز الصدقة، ولا تحل حتى تقبض، قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: الذين قضوا بما تقول، هم الذين حبسوا العقار والأرضين، على أولادهم وأولاد أولادهم: عمر، وعثمان، وزيد بن ثابت، فإياك والطعن على من سلفك، والله ما أحب أني قلت ما قلت، وأن لي جميع ما تطلع عليه الشمس أو تغرب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن لي به علم فقال عمر: استغفر ربك، وإياك والرأي، فيما مضى من سلفك، أو لم تسمع قول عمر للنبي ﷺ إن لي مالا أحبه، فقال رسول الله ﷺ ﴿أحبس أصله وسبل ثمره﴾ ففعل، فلقد رأيت عبد الله بن عبيد الله، يلي صدقة عمر، وأنا بالمدينة وال عليها، فيرسل إلينا من ثمره اهـ[2].

وحبس عثمان بن عفان ﷺ ماله الذي بخيبر، ويدعى مال ابن أبي الحقيق، ولما قطع عمر ﷺ لعلي ﷺ بينبع، ثم اشترى علي ﷺ إلى قطيعته هذه، فحفر فيها عينا، ثم جعلها في سبيل الله، وقد بلغ جدادها في زمن علي ﷺ ألف وسق.

وحبس الزبير بن العوام ﷺ دوره على بنيه، وأن المردودة من بناته أن تسكن غير مضرة، ولا مضرا بها، فإذا استغنت بزوج ، فليس لها حق.

وحبس معاذ بن جبل ﷺ، فقد كان أوسع أنصاري بالمدينة ربعا، فتصدق بداره التي يقال لها دار الأنصار اليوم.

وقد حبست عائشة، وأختها أسماء، وأم سلمة، وأم حبيبة، وصفية، أزواج النبي للنبي ﷺ .

---

(١) الإسعاف للطرابلسي ص. ٦-٧.وانظر سنن البيهقي ٦/ ١٥٨ — ١٥٩.

(٢) الإسعاف للطرابلسي ص. ٥-٦.

وحبس سعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، وجابر بن عبد الله، وعقبة بن عامر، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم ﷺ، وهذا إجماع منهم على جواز الوقف ولزومه، ولأن الحاجة ماسة إلى جوازه ؛ لقول زيد بن ثابت ﷺ: لم نر خيرا للميت ولا للحي من هذه الحبس الموقوفة: أما الميت فيجري أجرها عليه، وأما الحي فتحبس عليه، ولا توهب، ولا تورث، ولا يقدر على استهلاكها.[1] وتصدق طلحة بن عبيد الله ببيرحاء، وهي حديقة كان رسول الله ﷺ يدخلها، ويستظل فيها، ويشرب من مائها[2].

فكل هذا يعطيك الدلالة على أن أصحاب رسول الله ﷺ عرفوا قيمة الوقف في سبيل الله تعالى ولذلك تسابقوا على هذا العمل، والله تعالى يقول ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾[3] وقال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[4] فالوقف في سبيل الله تعالى من أفضل التعاون على البر والتقوى؛ لأن به -كما سيأتي- ينتشر التعليم بين الناس، وتحفظ العلوم والثقافة، وبه يستمر الأجر للواقف، قال ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له)[5] قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: قال العلماء: معنى الحديث، أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها، فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف، وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح... وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه، وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهو مجمع عليهما[6].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إن مما سلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته:

---

(١) المصدر السابق نفسه ٨-٩. بتصرف. وانظر سنن البيهقي الكبرى كتاب الوقف باب الصدقات المحرمات ٦/ ١٦١.

(٢) البخاري في صحيحه (٥٥) كتاب الوصايا (١٧) باب من تصدق إلى وكيله ثم رد الوكيل إليه ٣/ ١٩٢.وانظر سنن البيهقي ٦/ ذكر الكثير من الصحابة الذين وقفوا أمواله وقال: وما لا يحضرني ذكره كثير يجزئ منه أقل مما ذكرت، وعن أنس أنه وقف دارا بالمدينة فكان إذا حج مر بالمدينة فترل داره.

(٣) ٧- الزلزلة

(٤) ٢- المائدة.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته ١١/٨٥. سنن الترمذي (١٣) كتاب الأحكام (٣٦) باب في الوقف رقم (١٣٧٦) ٣/٦٦٠. نصب الراية للزيلعي ٣/ ١٥٩. شرح السنة للبغوي ١/٢٢٠.

(٦) شرح النووي لصحيح الإمام مسلم ١١/٨٥.

علما نشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه أو بيتا لابن السبيل، أو نهرا أجـراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته)[1].

فالمسلم الذي يعي مثل هذه الآيات والأحاديث لا يمكن أن يفرط في هذا الأجر والثـواب الدائـم المستمر الذي يجري على صاحبه وهو تحت أطباق الثرى، بل يسارع لينال هذه المكرمة من الله تعالى.

(١) سنن ابن ماجه المقدمة ١/٤٤رقم (٢١٤).قال المحقق: في مجمع الزوائد: له شاهدان

أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة

قبل الحديث عن أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة نقول: مجالات الوقف لا تنحصر في دائرة محددة، فقد شمل الوقف الإسلامي الكثير من الأنشطة، مثل الوقف على الخدمات الاجتماعية، التي تحتاج إليها مختلف فئات المجتمع ومنها:

وقف لختان الأولاد اليتامى بالقيروان، أقامه إسماعيل بن القائم بأمر الله الفاطمي.

وقف لرعاية الغرباء، في دمشق، أقامه أهل دمشق.

وقف لتزويج الفقيرات، والمكفوفين، والمعوزين، وذكر ابن بطوطة أنه رآى بالشام وقفا، لتزويج البنات الفقيرات، اللواتي لا قدرة لأهلهن على تزويجهن، كما رآى وقفا مماثلا لذلك في تونس وفي فاس بالمغرب، كان هناك دار لتزويج المكفوفين، الذين لا يملكون سكنا لإقامة مراسم العرس، كما رآى بفاس دارا أخرى فخمة لهذا الغرض.

وقف للقرض المالي بدون فائدة، وهي مبرة في قيسارية فاس، وضع فيها ألف أوقية من الذهب، للمحتاجين إلى القرض الحسن، وعملت حتى وقت متأخر عام ١٢٩٩هـ.

وقف في مصر والشام ماء السبيل، بين الحارات لشرب الناس، وعمل الآبار في المفازات للمسافرين، كما وقفت الأوقاف لرصد الطرق، وتعديلها، وبناء الجسور وغير ذلك.[١]

مراكز التعليم والثقافة:

تعتبر مراكز التعليم، وعلى رأسها المساجد، والمدارس، والمكتبات، من أهم الأمور التي كانت ترصد لها الأوقاف، وسأتكلم في هذا البحث، عن بعض العناية بهذه المراكز ؛ وفي بعض المواضع ؛ لأن استقصاء ذلك لا يتحمله هذا البحث الموجز؛ لذا فإنني سأعطي لمحة معبرة عن اهتمام المسلمين بهذه الناحية، فأقول:

(١) انظر أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات، أ. د. صالح بن غانم السدلان ص.٣٢-٣٣.

المساجد:

المسجد: هو المركز الأول للإشعاع الروحي والعلمي، لأنه مكان العبادة والتعليم، وموطن التذكر والتفكر والتوجيه، و لم تكن رسالة المسجد في الإسلام مقصورة على الناحية الدينية وحدها، بل كانت المساجد – ولا تزال – مفتحة الأبواب، لا يرد عنها طالب علم، أو قاصد ثقافة،

ففي مسجد رسول الله ﷺ أقام فقراء المهاجرين، وفيه استقبل رسول الله ﷺ الوفود، ومنه انطلقت البعوث، وأرسلت الجيوش، وهو محل تشاور المسلمين وتناصحهم، ومقر القضاء، ومركز القيادة العسكرية، ودار الضيافة،

لقد كان مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، هو الجامعة الأولى، التي ربى فيها رسول الله ﷺ أصحابه على يديه خير تربية، حتى فقهوا في دين الله تعالى، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون على هذه الجامعة، فيصيبون فيها علما وهدى، وفضائل وأدبا، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يتناوب هو وجاره، زيارة مسجد رسول الله ﷺ فكان إذا ذهب عمر للمسجد، أخبر جاره بما جرى فيه، طيلة ذلك اليوم، وإذا ذهب جاره إلى المسجد، أخبر عمر بما جرى طيلة ذلك اليوم أيضا، وقد ترجم البخاري لذلك بقوله (باب التناوب في العلم)[1] والهدف من ذلك، هو حضور حلقات الدرس التي كان رسول الله ﷺ يعقدها في مسجده،

وقد كان المسجد مدرسة لصنع الرجال، وتخريج الأبطال، لقد تخرج من المسجد النبوي، أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، والزبير ابن العوام، وخالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، هؤلاء وأمثالهم، هم الذين فتحوا الدنيا بأخلاقهم وعدلهم، وتمسكهم بأهداب الدين، قبل أن يفتحوها بسيوفهم ورماحهم، فكانوا بحق أساتذة العالم وملوك الدنيا، كما تخرج من المسجد أيضا، العلماء الجهابذة، والفقهاء، والمحدثون: من أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، والأئمة الأربعة،والبخاري، ومسلم وأمثالهم، فكان هؤلاء مصابيح الهدى، وشموس العلم والمعرفة،

وفي مسجد رسول الله ﷺ تألق الإمام مالك بن أنس، وفي مسجد الكوفة وبغداد تألق الإمام أبو

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ١/ ٣١

حنيفة النعمان، ومن جامع الفسطاط بمصر تألق محمد بن إدريس الشافعي، وفي بغداد تألق شيخ السنة الإمام محمد بن حنبل، ورجال الحديث، وعلماء اللغة والأدب،[1]

لقد قام صحابة رسول الله ﷺ بعده بتعليم الناس وتفقيههم في الدين، وكانوا يحضرون المساجد، ويلتف المسلمون حولهم، يجيبون عن الأسئلة الموجهة إليهم بما، فهموه عن رسول الله ﷺ

وقد سار التابعون على نهج الصحابة ﷺ، فكانوا يجلسون في المساجد، يعظون الناس، ويعلمونهم أمور دينهم: منهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسالم مولى عبد الله بن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وربيعة الرأي، شيخ الإمام مالك بن أنس وغيرهم .

لكل ذلك فقد عني المسلمون بأمر المساجد، منذ فجر الإسلام، وأولوها رعايتهم وعنايتهم ؛لأن لها أثرا جليلا في توجيه المجتمع، في مجالات السياسة، والثقافة والتعليم، والتربية، والاقتصاد، وغيرها.

لهذا فقد نال الوقف على إنشاء المساجد وصيانتها، والإنفاق على القائمين عليها، من الأئمة، والوعاظ، والعلماء اهتمام المسلمين وعنايتهم، فلم تكن المساجد - في كل البلاد الإسلامية - إلا مساجد وقفية، ثم إن خدمتها وصيانتها، كانت مما حبس عليها من الأموال الوفيرة ؛ لتأدية وظائفها المتعددة، فكانت المساجد إلى جانب هدفها الأساسي - وهو إقامة العبادة لله - كانت مراكز لاجتماع الأمة، وأمكنة للتقاضي وفض المنازعات[2]، واستخدمت قبل إنشاء الدواوين الحكومية والوزارات المتخصصة أماكن لتصريف أمور الدولة،

وأكثر ما استخدمت المساجد له - إلى جانب العبادة - هو أنها صارت مراكز للتعليم، فكان الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - أول من استخدم مسجده مكانا للدعوة، والتعليم، والإرشاد، وترسم صحابته من بعده خطاه، فاستمرت حلقات العلم في مسجده ﷺ بالمدينة المنورة، والمسجد الحرام بمكة المكرمة.

وبمرور الزمن ازدهرت المساجد، وخاصة الكبرى منها، وكلها كانت مراكز علمية، عكف فيها الطلاب لتلقي العلوم الشرعية، والعلمية، وعلوم اللغة، لكل هذا عني بها أهل الخير، ووقفوا الأموال

---

(١) رسالة المسجد في الإسلام د/ عبد العزيز محمد اللميلم ص.١٠٦- -١٠٨ بتصرف

(٢) ثم جعل القضاء خارج المسجد لما يكون بين المتخاصمين من لجاج. كما أخرج المؤدبون من المسجد تتريها له من عبث الأطفال.

الطائلة على إنشائها وصيانتها، وعلى القائمين عليها من علماء، وقراء، ووعاظ، وعـــاملين، وطـــلاب علم، ومهما تكلمنا عن المساجد وعمارتها فلا نكاد نوفي شيئا من حقها، لكننا نعطي لمحة مختصرة عـــن تلكم المساجد فنقول:.

أبرز مساجد الأمصار الإسلامية، وأعظمها أثرا في النواحي العلمية.

مساجد العراق، والشام، ومساجد مصر، ومساجد المغرب.

أولا: في العراق:

مسجد البصرة: يعد مسجد البصرة، أول مسجد أنشئ بعد الفتوحات الإسلامية ؛ لأن البصـــــرة كانت أول مدينة أحدثت في الإسلام – خارج الجزيرة العربية – سنة١٤هـ قام هذا المســـجد بـــدور بارز في النهضة العلمية والأدبية في العصر الأموي، ففيه جلس الكثير من الفقـــهاء والأدبـــاء، يلقـــون دروسهم، ومن أشهرهم الإمام الحسن البصري، وكانت حلقته تضم العديد من القراء، كمـــا كـــان الشعراء والأدباء، يتخذون من هذا المسجد مركزا لرواية الشعر والأدب، وفيه ظهرت طائفة البـــاحثين اللغويين، كما كان مقر العالم (الخليل بن أحمد الفراهيدي) الذي يعد أول من صنف في اللغة، كما هـــو أول من وضع علم العروض، والذي تخرج على يديه العلماء الكبار أمثال سيبويه.[1]

مسجد الكوفة: تعتبر الكوفة ثاني مدينة أحدثت في الإسلام -بعد البصرة- إذ يعود إنشـــاؤها إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي تحول إليها من المدائن، وأول ما أنشئ فيها المسجد اختطه ســـعد ســـنة ١٧هـــ.

وقد اصبح هذا المسجد مركزا كبيرا من مراكز الفقه، ففيه ظهرت بوادر مبادئ الفقه المبني علـــى التجرد، واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة، فقد جلس فيه علي بن أبي طالب ﷺ، يلقـــن النـــاس أصول الدين، كما جلس فيه عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن حبيب السلمي، لتدريس القرآن الكريم، كما ظهرت في هذا المسجد مدرسة للتفسير، اشتهر من معلميها: سعيد بن جبير، وعلي بـــن حمـــزة الكسائي[2].

---

(١) محاضرات الأدباء للأصبهاني ١/٢٠ وانظر المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي د/علي عبد الحليم محمود ص٣٩.

(٢) رسالة المسجد في الإسلام د/ عبد العزيز اللميلم ص. ١٩١- ١٩٣

جامع المنصور: ببغداد أسسه أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ وجعل موضع الجامع وسط المدينة، التي جعلها مدورة، كما جعله ملاصقا لقصره المسمى بقصر الذهب، وقد أصبح هذا المسجد، من أشهر مراكز التعليم في الدولة الإسلامية، في عهد الخلافة العباسية، وقبلة أنظار الأساتذة والطلبة في ذلك العهد[١].

ثانيا: في الشام:

المسجد الأقصى: هو واحد من المساجد الإسلامية الكبرى، التي كان لها الدور الريادي، في جوانب متعددة: التعليمي منها، والسياسي، والاجتماعي، إذ أصبح في يوم من الأيام بمثابة جامعة إسلامية، كان المسجد الأقصى مظهرا حضاريا وفكريا من مظاهر التمدن الإسلامي، وكان يقوم بدوره في الحفاظ على التراث الإسلامي، وخدمة الثقافة الإسلامية ورعايتها.

لقد كان المسجد الأقصى -بما قام فيه وفي ساحاته، ومن حوله من مؤسسات علمية، ومدراس، ومكتبات، ودور قرآن، ودور حديث، وزوايا، وخوانق، ورباطات- كان عبارة عن معاهد علمية، أو كليات، أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية، وتدرس العلوم الشرعية، والعربية، والتأريخ، وعلم الكلام، والمنطق، والعلوم الرياضية وغيرها.

كما أنشئت العديد من المدارس بداخل المسجد الأقصى ومنها: المدرسة النحوية، والمدرسة النصرية، والمدرسة الفارسية، وكلها بداخله[٢].

الجامع الأموي بدمشق: أنشأ هذا الجامع الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بين عامي ٨٨-٩٦هـ حيث استقدم له الصناع، والعمال المهرة من شتى أنحاء الدولة الإسلامية... فأصبح هذا الجامع مركزا مهما من مراكز الثقافة، في العالم الإسلامي، إذ اشتمل على حلقات للتدريس، يقوم بها العلماء والفقهاء ؛ لتدريس الطلبة مختلف العلوم، كما يوجد فيه مساكن للطلبة الغرباء، بالإضافة إلى زوايا عدة، كانت في المسجد، يتخذها الطلبة للنسخ والانفراد.

يقول ابن جبير عن هذا الجامع: وفي هذا الجامع المبارك، مجتمع عظيم، كل يوم، إثر صلاة الصبح،

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص. ٣٨٣. باختصار

(٢) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى ص. ٩١-٩٤. باختصار.

لقراءة سبع من القرآن دائما، ومثله إثر صلاة العصر، وفيه حلقات للتدريس، للطلبة وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيه الطلبة المغاربة، ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس.(١)

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم: فالمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح - تتريها لكتاب الله تعالى - وإنما يقرءون القرآن تلقينا، ومعلم الخط غير معلم القرآن.

وقد جعل في كل ركن من أركان المسجد الأربعة، مشهدا اتخذ كل منها على أسماء الخلفاء الأربعة: فالشرقي بقبله مشهد على اسم أبي بكر، وبه عدة كتب، وخزائن وقف، وشاميه مشهد على اسم علي، والغربي بقبله مشهد على اسم عمر، وبه شيخ حديث، وجماعة من العلماء يستمعون الحديث بوقت مستقل، وعدة خزائن وكتب وقف، وشاميه مشهد على اسم عثمان، وبهذا المشهد تعقد مجالس الحكام الأربعة والعلماء، لفصل القضايا المعضلة، التي لا ينفرد بها حاكم، فيجتمعون بأمر نائب السلطان، وينظرون في تلك الحكومة، ويحكمون فيها بأجمعهم،

وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل، لأنه ممر البيوت والمدارس والأسواق، وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة، والقراء، ومشايخ العلم والإقراء، ووجوه أهل التصدير والإفتاء، ووظائف الحديث، وقراء الأسباع، والمجاورين من أهل الصلاح، فلا تزال أوقاته معمورة بالخير، آهلة بالعبادة، قل أن يخلو طرفة عين في ليل أو نهار، من مصل، أو جالس في ناحية منه للاعتكاف، أو مرتل للقرآن، أو رافع عقيرته بأذان، أو مكرر في كتاب علم، أو سائل عن دين، أو باحث في معتقد، أو مقرر لمذهب، أو طالب لحل مشكلة من سائل ومسئول، ومفت ومستفت، هذا إلى من يأتي هذا المسجد مستأنسا لحديث، أو مرتقبا لقاء أخ، أو متفرجا في فضاء صحنه(٢).

هذا و لم يقتصر التعليم في هذا المسجد على أبناء المسلمين فقط، وإنما تعدى ذلك إلى انخراط العديد

---

(١) رحلة ابن جبير ص. ٢٤٤-٢٤٥. رحلة ابن بطوطة ص. ٨٨-٨٩.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص. ٢٠٢-٢٠٣

من أبناء أوربا وغيرها، إلى الدراسة في هذا المسجد، على أيدي علمائه، فهناك الكثيرون من علماء الدولة البيزنطية، تلاميذ لشيوخ جامع دمشق الأموي، وقد كشفت عن ذلك، الدراسات الخاصة بمشكلة إنكار عبادة التصاوير، فقد تبين أن الذين قادوا الحركة، وأنكروا على المسيحيين تقديس التماثيل والصور، والصلاة إليها، كانوا قد درسوا في الشام في المسجد الأموي، واقتنعوا بأن عبادة التصاوير - على النحو الذي كان جاريا في الدولة البيزنطية - وثنية تشوب العبادة، وكانت الحجج التي ناقشوا بها خصومهم، مأخوذة من كتب المسلمين بلا جدال.

وكان (ليون بن قسطنطين) الذي أنشأ الدولة الأيسورية -وهي من أقوى الدول في تاريخ الروم- قد تعلم قبل أن يصل إلى العرش في دمشق.

ومن أبرز العلماء الذين درسوا في هذا المسجد الخطيب البغدادي، الذي كان يدرس فيه الحديث، والغزالي الذي أكمل كتابه إحياء علوم الدين في هذا المسجد، هذا وكان دور المسجد بارزا في حركة الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين وضد المغول،.[1] وأخيرا ضد اليهود.

ثالثا: مساجد مصر: جامع الفسطاط – الجامع الطولوني – الجامع الأزهر:

جامع عمرو بن العاص في الفسطاس: فتح عمرو بن العاص مصر، وأسس مدينة الفسطاس، وبنى فيها مسجدا سنة ٢١هـ سمي باسمه، وكان يسمى بالمسجد العتيق، وتاج الجوامع، ويعتبر رابع مسجد أقيم في الإسلام بعد مساجد: المدينة المنورة، والكوفة، والبصرة، كما يعتبر أول مسجد أسس بمصر بعد الفتح الإسلامي[٢].

جعل المسلمون من هذا المسجد، معهدا علميا كبيرا، كانت منه نواة علمية كبرى، ليس في مصر وحدها، بل في مدن أخرى كثيرة، ومنذ ذلك الحين، أخذ هذا الجامع يخطو خطوات واسعة، في نشر مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه القويمة، ولهذا فقد أصبح مركزا علميا مهما؛ لنشر الحضارة العربية والإسلامية وإشعاعها، كما كان مركزا للحكم في الخصومات.

ومن أشهر العلماء الذين أفادوا العالم الإسلامي بعلمهم وتأليفهم:عبد الله بن عمرو بن العاص،

---

(١) الجامع الأموي في دمشق ص. ٢١.
(٢) الخطط المقريزية ٣/ ١٠٧.

الذي يعتبر بحق أول من جلس للتدريس في هذا المسجد، فكانت له حلقة يدرس فيها العدد الكبير من طلبة الحديث متنا وشرحا، وحلقة أخرى يدرس فيها طلبة اللغة السريانية، وقد وضع في هذا المسجد كتابا في الحديث، سماه (الصادقة)، وألف كتابه الآخر (أقضية الرسول ﷺ) وكتابه (أشراط الساعة).

وبهذا فعبد الله بن عمرو بن العاص أول فقيه ومعلم بمصر.

وممن اشتهر بالتدريس في هذا المسجد، الإمام الشافعي ﷺ الذي قدم إلى مصر عام ١٩٩أو ٢٠١هـ، حيث كانت له حلقة في المسجد، كانت أول مدرسة لتدريس الفقه، وقد ذاعت شهرة الشافعي فألف كتابه (الأم) في هذا المسجد، ومن كتبه السنن في الحديث، وكان يجلس للدرس بعد صلاة الصبح، فيبدأ بتدريس الحديث، ثم الفقه، ثم اللغة.

قال ابن بطوطة "وبشرق المسجد تقع الزاوية حيث كان يدرس الإمام الشافعي[1] وبقي على الدرس حتى مرض مرضه الأخير وتوفي سنة ٢٠٤هـ.

وممن درس في هذا المسجد، الإمام محمد بن جرير الطبري، حيث وصل إلى الفسطاس عام (٢٥٣هـ) وهوالمفسر، والمحدث، والفقيه، والمؤرخ، كما درس في هذا المسجد اللغة والشعر، وأملى شعر الطرماح في هذا المسجد.

كما جلس للتدريس في هذا المسجد (عبد الله بن وهب) الإمام المشهور وأبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصري، وكذلك القاضي إسماعيل بن اليسع الكوفي، الذي رحل من العراق إلى مصو، ودرس في هذا المسجد الفقه الحنفي، وهو أول من أدخل هذا الفقه إلى هناك.

وهناك حلقات للوعظ والإرشاد، وممن اشتهر بالوعظ في هذا المسجد، الإمام الليث بن سعد، الفقيه المشهور.

وفي هذا المسجد سبع زوايا للتدريس، خصصت كل زاوية لتدريس علم من العلوم، ويدرس فيها إمام من الأئمة[2]

وفي المسجد حلقات درس دائمة، وقراء كثيرون، وذلك المسجد من معالم مصر البارزة، ولا يوجد

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص. ٣٧.

(٢) الخطط المقريزية ٣/ ١٢٥وكتاب الانتصار لابن دقماق ص. ١٠٠.

أقل من خمسة آلاف شخص في المسجد، في أي وقت من أوقات الليل والنهار، فساحات المسجد لا تخلو من طلاب العلم، والغرباء، والكتبة الذين يكتبون للناس الصكوك والقبالات[1].

و لم يقتصر التدريس فيه على الرجال، بل كان للنساء نصيب من التدريس في مسجد الفسطاط، لعل من أشهرهن السيد نفيسة بنت الحسن، التي كانت تعلم النساء وتعظهن. وكذلك السيدة فاطمة بنت عفان بن عثمان البغدادية، حيث جعلت من زاويتها رباطا ؛ لوعظ النساء وتعليمهن.

لقد كان يدرس في هذا المسجد سائر العلوم: من طب، وفلك، ورياضة، وهندسة، جنبا إلى جنب، مع التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، وبذلك يعد مسجد الفسطاط، من أكبر الجامعات التي نراها في وقتنا الحاضر، ومن هنا فقد أدى هذا المسجد رسالته خير أداء ومن هنا ايضا اعتنى به الخلفاء عناية فائقة.

الجامع الطولوني: انتهى أحمد بن طولون المتوفى سنة (٢٧٠هـ) من بناء مدينة القطائع في مصر، سنة ٢٦٥هـ. وبدأ ببناء المسجد عام ٢٦٣ وانتهى منه عام ٢٦٥هـ وهذا التأريخ مثبت على لوح في المسجد، وهذا هو أول تذكار من نوعه عرفته المساجد الإسلامية[2].

ويعد جامع ابن طولون من أكبر مساجد العالم الإسلامي، إذ تبلغ مساحته مع الزيادة ٢٦،٢٤٤مترا مربعا[3].

وقد عمد ابن طولون، إلى أن يجعل من هذا المسجد، جامعة علمية، تضارع جامعة الفسطاط، حيث نقل إليها: القراء، والفقهاء، والطلبة،وعين له القاضي بكار بن قتيبة إماما وخطيبا، ومدرسا للفقه، وجعل الربيع بن سليمان -تلميذ الشافعي- مدرسا للحديث، ومع كل واحد منهما وراق وكتبة، يكتبون ما يلقى من الدروس.

ويروي السيوطي: أن دروسا مختلفة رتبت في الجامع الطولوني، إذ شملت التفسير، والحديث، والفقه

---

(١) رحلة ناصرخسرو (سفر نامة) ص. ١٠٦.
والقبالة: قال الزمخشري: كل من تقبل بشيء مقاطعة وكتب عليه بذلك كتابا فالكتاب الذي يكتب هو القبالة، بالفتح، والعمل قبالة بالكسر؛ لأنه صناعة. المصباح المنير للفيومي١٤٦/٢ مادة قبل.

(٢) بيوت الله لمأمون غريب ص. ١٧٩-١٨٠.

(٣) المدخل إلى الآثار الإسلامية ص. ١٤٢.مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص. ١٠٦.

على المذاهب الأربعة، والقراءات، والطب، والميقات، وقد جعل ابن طولون في مؤخرة المسجد، دار شفاء ألحق بها صيدلية، أعد فيها من الأدوية، وأنواع الشراب، ما يلزم لإسعاف من يحدث له حادث من المصلين، خصوصا يوم الجمعة، ورتب لهذه الصيدلية خدمها، وعين لها طبيبا، وألزمه بالتواجد يوم الجمعة استعدادا للطوارئ[1] وقد أصبحت هذه الدار فيما بعد، مثابة لمئات الطلبة، الذين يتلقون بها دروسا في الطب والعلاج، ويتردد عليها الأطباء، حيث ألقت مباحثهم الطبية على أطباء الغرب ضوء كبيرا[2].

الجامع الأزهر: إذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس في الفسطاط، فإن الجامع الأزهر أول جامع أسس في القاهرة، ولكل من الإثنين زعامته ورسالته العلمية[3] ففي سنة٣٥٩هـ تم على يد جوهر الصقلي – قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي – ضم مصر إلى الحكم الفاطمي، بعد الإطاحة بإمارة الإخشيديين، حيث اختط مدينة القاهرة المعزية، وأسس بها أول جامع لهم، هو الجامع الأزهر، حيث بدأ بناءه سنة ٣٥٩ وانتهى منه في رمضان سنة ٣٦١هـ[4].

وقد سماه الفاطميون بالأزهر، تيمنا باسم فاطمة الزهراء ﷺ حيث يتبع الفاطميون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وأراد هؤلاء أن يجعلوا منه معهدا علميا، تدرس فيه الدعوة الإسماعيلية وشتى العلوم والمعارف، حيث أنشئوا فيه أقساما للدراسة، ومساكن للطلبة، وخصصوا من بيت المال مبلغا للصرف عليه، لدوام استمرار التعليم فيه، ففي سنة ٣٦٥هـ جلس كبير القضاة علي بن النعمان القيرواني بالأزهر، وقرأ مختصر أبيه في فقه الشيعة، ويسمى (الاقتصار) فكانت هذه أول حلقة للتدريس، تعقد في الجامع الأزهر[5] وبعد أن نطوي البحث عما كان يدرس فيه الشيعة الإسماعيليون نقول:

الأزهر بعد الفاطميين: هو الجامعة الإسلامية الكبرى، به زال الجهل في عصور انتشرت فيها الجهالة، فصارت حياة العلم خالدة، فكثيرا ما بزغت فيه شموس وأقمار، وغردت فيه بلابل المتعلمين والمعلمين في العشي والإبكار، وقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة، أعمدة معينة، لا يجلس

---

(١) حسن المحاضرة ١٣٨/٢.
(٢) الإسلام في حضارته ونظمه لأنور الرفاعي ص. ٣٩٠ – ٣٩١.
(٣) مساجد مصر سعاد ماهر ص. ١٩٤.
(٤) الخطط المقريزية ١٥٧/٣.
(٥) مجلة الرسالة محمد عبد الله عنان العدد ١٣٦ ذو القعدة سنة ١٣٥٤هـ تأريخ الجامع الأزهر ص.٤١و٦٦

للتدريس بجانبها غيرهم، وكان الطالب حرا في اختيار أستاذه، واختيار الحلقة التي يريدها، إلى جانب اعتماده على نفسه في إعداد دروسه.

وقد درس في هذا الجامع، فطاحل وعمالقة العلماء، في كل فن، وكان من أشهر هؤلاء، ابن خلدون الذي عمل أيضا قاضيا، بعد رجوعه من المغرب.

كما جلس للتدريس بهذا الجامع، كل من السيوطي، والمقريزي، والقلقشندي، كما تولى تدريس الحديث فيه المقري.

وزادت أهمية الأزهر في القرن التاسع، حيث حفلت مصر بجمهرة من أعظم العلماء والكتاب، بلغ الأزهر فيها عصر الذروة: من أمثال الحافظ ابن حجر العسقلاني، وأبي العباس القلقشندي، صاحب موسوعة صبح الأعشى، والمقريزي صاحب الخطط، وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة، والسخاوي صاحب الضوء اللامع، وجلال الدين السيوطي صاحب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وقد كلن يدرس فيه معظم العلوم، كما أن أرباب الأموال كانوا يقصدون هذا الجامع بأنواع البر: من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله ﷻ، وتحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما في المواسم[1].

وعلى الإجمال فإن الأزهر قد قام بدور قيادي، لا في تأريخ مصر فحسب، بل في تاريخ الأمة العربية والإسلامية على مر العصور.

وهناك مساجد أخرى بنيت في مصر، من ذلك:

مسجد العسكر الذي بناه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، لما قدم في طلب مروان الحمار سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فكان يصلى فيه الجمعة وفي مسجد عمرو بن العاص[2]،

وجامع الحاكم، أول من أسسه العزيز بالله بن المعز وخطب فيه، ثم أكمله الحاكم بأمر الله سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وحبس عليه الحاكم عدة قياسر[3] وأملاك بباب الفتوح[4]، وبنى الحاكم بأمر

(١) الخطط المقريزية ٣/ ١٦٣.
(٢) حسن المحضرة في تأريخ مصر والقاهرة ٢/ ٢٣٧.
(٣) في القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/ ١١٦: القيسري من الإبل العظيم جمعه قياسر وقياسرة.
(٤) حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة ٢/ ٢٥٣.

الله جامع راشدة بجوار رباط الآثار[1]، ومن بناء الحاكم أيضا الجامع الذي بالمقس على شاطئ النيل، ووقف عليه أوقافا[2]، ومن ذلك الجامع الأقمر بناه الآمر بأحكام الله، والجامع الأفخر وهو الذي يقال له اليوم جامع الفكاهيين، بناه الخليفة الظافر[3]، وجامع الصالح خارج باب زويلة بناه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز[4].

مساجد المغرب

في تونس: جامع القيروان – جامع الزيتونة.
في المغرب: جامع القرويين.

جامع القرويين بتونس:

تعتبر القيروان رابع مدينة أحدثت في الإسلام، بعد البصرة، والكوفة، والفسطاط، أسسها القائد عقبة بن نافع الفهري، أبرز قادة الفتح الإسلامي، وذلك عندما عينه الخليفة الأموي، معاوية بن أبي سفيان ﷺ واليا على أفريقية سنة ٥٠هـ، نتيجة لخبرته الطويلة في تلك البلاد[5].

لقد كان هذا المسجد منارة العلم في المغرب الإسلامي قاطبة، حيث تخرج فيه من العلماء، من يفخر بهم العالم العربي والإسلامي على مر العصور، ولعل أبرز شاهد على ذلك، هو أن شيوخ القيروان، ممن تلقوا علومهم في هذا المسجد، هم الذين جعلوا من مسجد القرويين بفاس، جامعة كبرى، على إثر نزوحهم من القيروان، فهم الذين أسسوا جامع القرويين، وأعطوه اسمه، وعمروه بالعلم وحلقات الدرس، ذلك أن كلمة القرويين تعني القيروانيين، في نظر العديد من العلماء والمؤرخين[6].

وكان من العلماء الذين نشروا علمهم في هذا الجامع كل من: علي بن زياد، تلميذ الإمام

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٤.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٤.
(٥) تأريخ خليفة بن خياط ص. ٢١٠.
(٦) المساجد / حسين مؤنس ص.١٧١.

مالك ﷺ، وأسد بن الفرات، الذي قدم المدينة، فأقام بها عشرين سنة، تلميذاً للإمام مالك ؛ ليأخذ المذهب المالكي، ثم ذهب إلى العراق، ليأخذ مذهب الفقه الحنفي عن أبي ويسف، تلميذ أبي حنيفة، كما أن الإمام سحنون، فعل نفس الفعل، ليعود ليلقي دروسه في جامع القيراون، وهؤلاء العلماء ليسوا سوى قطرة من بحر، ونماذج لغيرهم في نشر الإسلام في المغرب العربي.

هذا هو جامع القيروان، الذي مازال معقلاً من معاقل الإسلام، في الشمال الأفريقي، والذي يعتبر الفضل الأكبر لعلمائه في نشر الدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، وفي ذلك الوقت، كان هذا المسجد موئلاً للعديد من رواد العلم والمعرفة، ومنطلقاً للجهاد في سبيل الله، إلى العديد من الأقطار الأخرى التي كان له فضل إدخالها في الإسلام.

جامع الزيتونة بتونس:

يعود تأريخ بناء هذا المسجد إلى حسان بن النعمان الغساني، أحد قادة فتح بلاد المغرب، ومؤسس تونس، وكان أول عمل قام به حسان، هو تخطيط المسجد الجامع الذي جعله وسط المدينة، وهذا هو المنهج الذي سار عليه المسلمون، منذ هجرة النبي ﷺ إلى يثرب[١]، ظل جامع الزيتونة بتونس كعبة القصاد، ونهاية مطاف رواد المعرفة، من مغاربة وأندلسيين نازحين، وبجانبه مدارس علم، تخرج فيها أكابر العلماء، وعظام الأدباء[٢] جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليمية، وقد حمل مشعل الثقافة العربية اثني عشر قرناً، بلا انقطاع، ولا انفصال، تجرد من خلالها لدراسة العلوم منذ سنة ١٢٠هـ وظل على مر العصور، مناراً وهاجاً للتعليم، والبحث، والاستنباط، فتخرج فيه الفقيه، واللغوي، والأديب، وأصبح أكبر جامعة إسلامية، عرفها المغرب بأسره، وتفرع من دوحة الزيتونة، أغصان علم ومعرفة، زانوا الثقافة البشرية، في المشرق والمغرب[٣]، وقد أصبح هذا المسجد فيما بعد، جامعة للدراسات العربية والإسلامية، حيث قام بدور كبير في خدمة الفكر الإسلامي، لا في تونس وحدها، بل في شمال الصحراء وجنوبها[٤].

---

(١) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس /لابن أبي دينار ص. ١٠.

(٢) حول مدينة تونس العتيقة / سليمان مصطفى زبيس ص. ٢٩.

(٣) موسوعة التأريخ الإسلامي / د/ أحمد شلبي ٦/ ١٧٥٧.

(٤) تأريخ جامع الزيتونة / محمد عثمان الحشائشي ص. ٥.

وممن أسهم في التدريس في جامع الزيتونة: أبو محمد/ خالد بن أبي عمران التجيبي، الذي سمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ، ومن سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب، وكذا أبو الحسن/ علي بن زياد العبسي التونسي (المتوفى سنة (١٨٣هـ) تلميذ مالك بن أنس، والليث بن سعد، وشيخ البهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، والإمام سحنون، وكذلك أبو مسعود/ عبد الرحيم بن أشرس، وأبو خليل/ هشام بن خليل، وأبو البشر/ زيد بن بشر الأزدي، وغيرهم كثير، فوجود هذا العدد الكبير من العلماء؛ يوحي بكثافة النشاط العلمي والتدريسي الذي احتواه الجامع الأعظم، وجمع كل هؤلاء العلماء[1].

وكان أمراء العهد الحفصي، ينتدبون العلماء لمدارسهم، من بين مشاهير علماء جامع الزيتونة، وبذلك تكتسب المدرسة مكانة، وتعج بطلاب العلوم المختلفة[2].

وقد اشتهر جامع الزيتونة بوجود مكتبة، احتوت على العديد من الكتب، وقفت على الطلبة يقرؤونها، وينسخون منها، وعين لها متخصصون لمناولة الكتب، وإرجاعها إلى أمكنتها، كما أسند الإشراف عليها إلى إمام جامع الزيتونة، استمر جامع الزيتونة على هذا المنوال، يؤدي دوره الريادي، حتى صدر مرسوم في ١٩٣٣هـ اعتبر فيه جامعة، سميت بجامعة الزيتونة، وسمي شيخه مديرا، وجعلت الدراسة فيه على ثلاث مراحل:

١- الإعدادية: وتنتهي بشهادة الأهلية.

٢- المتوسطة: وتنتهي بشهادة التأهيل.

٣- العالية: وتنتهي بشهادة العالمية، مع التخصص في القراءات، وعلوم الشريعة الإسلامية، والآداب، ثم أضيف إلى منهجه بعض المواد العصرية، واللغات الأجنبية، وخصوصا بعد استقلال تونس![3].

ونكتفي بهذا القدر عن الكلام عن المساجد لنلتفت إلى المدارس فنقول:

المدارس:

"وفي مجال الإيقاف على المدارس والطلبة، فإن المساجد -كما رأينا- كانت جامعات كبرى؛

---

(١) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي / الطاهر المعموري ص.٤٩-٥٠.

(٢) نفس المصدر ص.٥٢.

(٣) تأريخ جامع الزيتونة / محمد بن عثمان الحشائشي ص. ٣-٤.(قلت) كلما أرادوا إضعاف جامع أنثوه .

لتدريس مختلف العلوم، و لم تكن مقتصرة على تعليم الناس أمور الدين فقط، بل امتدت المخصصات الوقفية، إلى إنشاء مدارس متخصصة، لتدريس الفقه، والطب، والإدارة، وأصبحت المساجد الصغيرة ملحقة بالمدارس.

وشمل التعليم الرجال والنساء، وحتى المماليك، والعبيد، والإماء، والأيتام، واللقطاء، وانتشرت المعرفة بين البوابين والفراشين، لأن شروط الوقفيات سهلت لهم ذلك، ولذا تجد أن البعض من هؤلاء، قد بلغ الذروة في العلم، وأصبح من كبار العلماء، كل ذلك بسبب أن أموال الوقف، كانت تسمح لهم بالعمل والدراسة فيها، وأصبح هؤلاء يمنحون بأنفسهم الشهادات والإجازات لغيرهم، مثل سعد الجبريلي، وكذا ابن الدبيثي (محمد سعيد المتوفى سنة (٦٣٧هـ)، والمتري، وأحمد بن أبي بكر بن علي الذي كتب كتاب تأريخ ابن كثير وأضاف إليه، وكان كثير من الأدباء والفقهاء يدرسون على بواب باب الدوامات -أحد أبواب دارالخلافة وهو أبو الثناء بن أبي السعادات(١)

من هذا تبين: أنه في العصور السابقة، لم يكن هناك مدارس، والذي كان يقوم بمهمتها هو المسجد.

وسأنقل الكلام عن بعض من ساهم في إنشاء المدارس، وهي سيرة وال من ولاة المسلمين، الذين كان لهم اهتمام بالعلم والعلماء، ألا وهو الوزير نظام الملك، الذي قال عنه أبو الوفاء – علي بن عقيل في كتابه الفنون:(أيامه التي شهدناها، تربي على كل أيام سمعنا بها... فأبهرت العقول سيرته، جودا، وكرما، وعدلا: بنى المدارس، ووقف الوقوف، ونعش من العلم وأهله ما كان خاملا مهملا، في أيام من قبله، وكانت سوق العلم في أيامه قائمة، والنعم على أهله دارة).(٢)

لقد كانت اهتمامات نظام الملك متعددة، لكن يمكن حصرها في هدفين:

الأول: ضمان مصلحة الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية على السواء.

والثاني: وهو الأهم، الدفاع عن الفكر والعقيدة الإسلامية ضد أعدائها، مما استلزم اهتمامه بالعلم والعلماء، والتعليم، وإنشاء المدارس، وتركيزه على إخراج أجيال من العلماء، المدافعين عن العقيدة الإسلامية، وفق منظور أهل السنة وعقيدة السلف... وهذا الهدف هو الذي يهمنا هنا.

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف د/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣٤. ضمن بحوث في كتاب إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف، نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذي 2/٣٤٥.

(٢) الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي د/ مريزن سعيد مريزن عسيري ص. ١٧٨

امتدت أيام نظام الملك ثلاثين عاما، لم يغفل في ليل أو نهار، وسفر أو حضر عن الإنعام على العلماء، وإرفاد الأفاضل، وخدمة رجال المعرفة، وكان ينفق الكثير من ماله على أهل العلم والأدب، فكان (أهل الدين والعلم والفضائل راتعين في إنعامه، وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء، وتوفر على تهذيب الأبناء والآباء، وفي عصره نشأت طبقات الكتاب الجياد... و لم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء... ومن رآى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره، ثم إنه لما وفر الأموال على الخزانة، جعل فيها لأرباب العلوم، وأصحاب الحقوق، حقوقا لا تؤخر، ورسوما لا تغير، وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثا، يأخذونه بقدر الفرائض)(1)

وفي عهد وزارة نظام الملك أنشئت المدارس النظامية، وكان أعظمها وأهمها: نظامية بغداد التي بدئ في بنائها عام (٤٥٧هـ ١٠٦٤م) وافتتحت للدراسة عام (٤٥٩هـ ١٠٦٦م).

يقول السبكي: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة... وقد أدرت فكري وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة اهـ(2).

على أنه كان هناك عدد من الوزراء السلاجقة - غير نظام الملك - من أظهر اهتماما بالعلم والعلماء.

وذكر ابن العماد أنه في سنة ٦٠٦هـ توفي أسعد، ويسمى محمد بن المنجا بن بركات التنوخي المعري، ثم الدمشقي الحنبلي، القاضي وجيه الدين أبا المعالي، وهو واقف الوجيهية، التي برأس باب البريد، وهي مدرسة قريبة من مدرسة الخاتونية الجوانية، وبها خلاو كثيرة ولها وقف كثير اهـ(3).

وابن الآثير مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري، أنشا رباطا، ووقف أملاكه وداره التي يسكنها عليه(4)

---

(١) الحياة العلمية في العراق للدكتور مريزن ص١٧٥-١٧٧ باختصار نقلا عن تأريخ دولة آل سلجوق ص٥٩-٦٠.
(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٣١٣ – ٣١٤. والمعاليم هو اشيء المعلوم الذي يأخذه الطالب.
(٣) الشذرات لابن العماد ٥/ ١٩.
(٤) الشذرات لابن العماد ٥/ ٢٣.

ويذكر ابن العماد عن مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وأنها كانت لها أوقاف، في كلام كثير عند كلامه عن سيرة عبد السلام حفيده[1].

(قلت) وهي إلى الآن فيها المدرسة، وفيها سكن للطلاب، ومعاليم شهرية، وسكن في المسجد الكيلاني ببغداد، وينفق على كل ذلك من الأوقاف التي خصصت للمدرسة.

وبنى الملك العزيز شهاب الدين أتابك بن الملك غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي مدرسة تحت قلعة حلب.[2].

وأوقف الشجاع محمود الدماغ مدرسة للشافعية والحنفية، داخل باب الفرج، تعرف بالدماغية[3].

وذكر السيوطي الكثير من المدارس في مصر، مثل المدرسة الصلاحية[4]، والمدرسة الكاملية[5]، والمدرسة الصالحية بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل[6]، والمدرسة الظاهرية القديمة بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة إحدى وستين وستمائة[7]، والمدرسة المنصورية بناها كما بنى معها المارستان الملك المنصور قلاوون[8]، والمدرسة الناصرية، ابتدأها العادل كتبغا وأتمها الناصر محمد قلاوون سنة ثلاث وسبعمائة[9]، ومدرسة صرغتمش بناها سنة ست وخمسين وسبعمائة[10]، ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بناها سنة ثمان وخمسين وسبعمائة[11].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٥/٤٥ – ٤٦.
(٢) نفسه ٥/ ٥٦.
(٣) نفسه ٥/ ٦١.
(٤) حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة للسيوطي جلال الدين ٢/ ٢٥٧ – ٢٥٩.
(٥) المصدر نفسه ٣/٢٦٢.
(٦) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٣.
(٧) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٤.
(٨) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٤
(٩) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٥.
(١٠) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٨.
(١١) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٩-٢٧٠

خدمات المدارس:

وقد كان يلحق بهذه المدارس أطباء للمعالجة، مع حمامات، لاستخدام الطلبة، مع مستشفى، ومطاعم، ومطابخ لتقديم الطعام، وكانت تعلق ساعة في وسط ساحة المدرسة، ليعرف الطلبة منها الوقت، وليعرفوا منها أوقات إقامة الصلاة، وأوقات المحاضرات، وكانت هناك حدائق تنتشر بين أروقة هذه المدارس،

وفي مدرسة المستنصرية، كانت هناك غرفة، تخص الخليفة، تتوسط المدرسة، حيث يستطيع الخليفة -عند وجوده في المدرسة- الإشراف منها على باقي أقسام هذه المدرسة أو الجامعة[1].

مميزات المدرسين:

ومن الملاحظ أنه في صدر الإسلام، لم يكن المدرسون يتقاضون راتبا لقاء تدريسهم، ولكن بمرور الزمن، وكثرة المدارس، وابتداء إيقاف الأوقاف عليها، كل ذلك جعل للمدرسين رواتب شهرية، وكان رؤساء الكليات في الجامعة، من خيرة علماء المسلمين وأكثرهم سمعة، فاشتهرت مدارس كثيرة، بشهرة من درس فيها، وكان يتسلم هؤلاء العلماء رواتبهم من الأموال الموقوفة، على هذه المدارس، التي يدرسون فيها:

فالإمام النووي، وتقي الدين السبكي، وعماد الدين بن كثير، كانوا ممن يدرسون في دار الحديث بدمشق، أما حجة الإسلام الغزالي، وإمام الحرمين الجويني، والخطيب التبريزي، والفيروزآبادي، وغيرهم، فكانوا أصحاب كراس وعمداء للمدرسة المستنصرية ببغداد، وأما ابن خلدون فكان ممن يدرسون بالأزهر، ثم في المدرسة القمحية، وكان الشيخ نجم الدين الحبوشاني، يدرس في المدرسة الصلاحية، وكلاهما أسسهما صلاح الدين، وأوقف عليهما الوقوف، كما أنه قد خصصت للمدرسين مخصصات انتقال، وللإنفاق على الخيول والبغال، التي تنقلهم بين مراكز سكناهم، ومراكز تدريسهم، كما يجري عليه الأمر في وقتنا الحاضر، في بعض البلاد الإسلامية، كل ذلك من أجل إشعار الأساتذة بالرعاية والعناية، في سبيل تشجيعهم على الإنتاج العلمي، والفقهي، وتنمية قدرات طلبتهم الذين

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف، د/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣٥ – ٢٣٦.

يشرفون عليهم[1].

ويقارن أحد المستشرقين الفرنسيين، بين طريقتين في البحث، عند العرب وعند الغرب فيقـول: إن من أهم ما اتصفت به جامعة بغداد - منذ البداية - هو روحها العلمية الصحيحة، التي سادت فيـها، فقد بحث علماؤها في استخراج المجهول من العلوم، والعلل من المعلولات، وفي عدم التسليم بما لا يقـوم على التجربة والرصد... وقد كان العرب - في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) - يتقنون هـذه الأساليب العلمية، وهذا هو المنهج المجدي، الذي اقتبسه منهم علماء الغرب، بعد زمن طويل، فكان هـو العامل الذي ساعد على الاكتشافات العلمية الحديثة، إذ إن منهاج العرب، قام في البداية على التجربـة والرصد، أما في أوربا، فقد سارت على الاقتصار على تكرار رأي المعلم، والفرق بين المنهجين واضـح، وقال:

ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بإظهار هذا الفرق[2].

المكتبات[3]:

يعد الكتاب المرجع الثاني لطلاب العلم بعد الأستاذ والمدرسة، لذا فمما يتصـل بـالحديث عـن الوقوف الإسلامية، على التعليم، وعلى المدارس، والمساجد، والمستشفيات -وهي المؤسسـات الـتي ساهمت في تنمية المجتمع الإسلامي، وتنمية قدرات أفراده، الذين حققوا روائع الإنجـاز الحضـاري في الإسلام- هو الإيقاف على المكتبات، وعلى دور المعرفة المشابهة لها، إذ إن المؤسسات الوقفيـة، الـتي خصصت للمكتبات، قد تركت طابعها المميز العميق، على مسار هذه الحضارة، وعلى نشـر المعرفـة المتخصصة لدى العلماء المسلمين، كما ساهمت هذه الوقوف، على نشر الكتاب العربي الإسلامي، على نطاق واسع، في وقت كانت فيه الطباعة غير معروفة لبني الإنسان، وغير موجـودة في أي مجتمـع، إذ كانت عملية استنساخ الكتب، تجري على أيدي نساخ يدويين، تخصصوا في هـذا العمـل في ديـار

(١) الدور الاجتماعي للوقف/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣٦.

(٢) المصدر أعلاه عن الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي.

(٣) سيكون النقل في هذا الموضوع (المكتبات) من كتاب الحركة العلمية في العراق، للدكتور مريزن سـعيد مريـزن عسيري من ص. ١٨٠ - ٢٠٢ وسوف أذكر بعض مراجعه في الهامش للفائدة، والله أعلم. وانظـر المكتبـات الملحقة بالمدارس في بحث د/ عبد الملك أحمد السيد / الدور الاجتماعي للوقف ص.٢٤١ - ٢٤٩.

الإسلام، غير أن الإنفاق عليهم، وعلى معيشتهم، واحتياجاتهم، أو على تمرينهم، كان في الغالب مما يرد من الميسورين، ويعتمد على أموال الوقف التي خصصت لدور العلم، وخزائن الكتب... وفي الكثير من الأزمنة، نجد أن الوقف هو المصدر الرئيسي، والمكتبات هي الزاد الذي يتزودون منه، في أسفارهم وإقامتهم، بل لعل من الأعمال الحسنة التي كان يقوم بها بعض العلماء والخلفاء وقف الكتب رجاء الأجر، وللمحافظة عليها من التلف، أو انتقال الملكية بعد الموت، فكانوا يفضلون وقفها ؛ ليستفيد منها طلبة العلم، فيذكر ابن العماد في الشذرات: أن محمد بن ناصر بن علي البغدادي، محدث العراق، المتوفى سنة (٥٥٠هـ ١١٥٥م) أوقف كتبه قبل وفاته[١].

ويذكر ابن الجوزي: أن عبد الله بن المبارك، المتوفى سنة (٥٠٩هـ) باع ملكا له، واشترى بثمنه كتاب الفنون لابن عقيل، وكتاب الفصول، ووقفهما على المسلمين[٢].

وذكر ابن الجوزي في أحداث عام (٤٨٣ هـ ١٠٩٠م) عن احتراق مدينة البصرة، التي كان من نتائجه، احتراق مكتبة عامرة، كانت قد أنشئت خلال القرن الرابع الهجري، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة فيقول: وفي جملة ما أحرقوا داران للكتب: إحداهما، وقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه... والأخرى، وقفها الوزير أبو منصور شاه مردان، وكان بها نفائس الكتب وأعيانها[٣].

وتتحدث المصادر المعتمدة، عن المكتبة التي أنشأها سابور بن أردشير في الكرخ ببغداد، عام (٣٨١هـ ٩٩١م) والتي كانت موئل العلماء والباحثين، الذين كانوا يترددون عليها، حتى احترقت في عام (٤٥١هـ ١٠٥٩م).

وقد ذكر ابن الجوزي في حوادث هذه السنة: أنه قد (احترقت بغداد - الكرخ - وغيره وبين السورين، واحترقت فيه خزانة الكتب، التي أوقفها الوزير، ونهبت بعض كتبها، وجاء عميد الملك، فاختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد، من أصناف العلوم، منها مائتا مصحف بخط ابن مقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق[٤].

---

(١) الشذرات لابن العماد.٤/ ١٥٥

(٢) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١٨٣طبقات الشافعية لابن السبكي ٥/ ١٢١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٣٨..

(٦) المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٣٨.

ويذكر ابن العماد[1] أنه في سنة ٦٠٣هـ توفي جمال الدولة واقف الإقباليتين إقبال الخادم بالقدس،[2] بعد أن أوقف داره بدمشق مدرستين: شافعية وحنفية، ووقف عليها مواضع: الثلثان على الشافعية، والثلث على الحنفية.

ثم كانت الطامة الكبرى، والمصيبة الكالحة، عندما دخل المغول بغداد، عام (٦٥٦هـ ــ ١٢٥٨م) واستباحوها، وقضوا على الكثير من المعالم الحضارية، والمآثر الإسلامية والتراث، ومن ذلك عشرات الآلاف من كتب خزائن المكتبات العامة والخاصة.

وينعكس مدى اعتزاز الإسلام والمسلمين بالعلم والعلماء، فيما خلدته المصادر من معلومات مفصلة، عن خزانات الكتب، التي أولاها المسئولون عن الإدارة الإسلامية، وكذلك مختلف أبناء الأمة، من اهتمام ورعاية، في سبيل تيسير المعرفة، عن طريق إنشاء دور للكتب، التي أصبحت شائعة، حتى ليندر أن تخلو مدرسة، أو مسجد جامع، أو مستشفى، أو غير ذلك، من معاهد العلم، دون أن تجد مكتبة عامرة ملحقة بها، هذا بجانب الخزائن الخاصة، التي يؤسسها الخلفاء، والأمراء، والوزراء، وكبار المسئولين، والعلماء، والتي يكون الإنفاق عليها من حسابهم الخاص، وكان يقوم على هذه المكتبات، مشرفون، وخزنة، وخدم، للقيام بمختلف الأعمال اللازمة لإدارتها، والإشراف عليها، والإفادة من خدماتها المختلفة، وكان الكثير منها مزودا بالورق والحبر، في قاعات رتبت، لتصبح مواضع للمطالعة، وفي أحيان أخرى للنسخ والتعليم، ولم تخل مكتبة من هذه المكتبات، من فهارس، يرجع إليها، لتسهيل طلب واستخراج، أو استعمال مجموعاتها، من الكتب المخزونة فيها، وكانت الفهارس عادة غاية في التنظيم، يشرف على إعدادها وتطويرها، خزنة المكتبة ومديروها[3]، ومما يحسن ذكره، هنا أنه كان لخزانة المكتبة النظامية، فهرس شامل دقيق، في ثبت الكتب الموقوفة، في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد[4] وكان لهذه الخزانة النفيسة، خزنة ومشرفون يتولون أمرها، والنظر في

---

(١) الشذرات ٥/ ٩.

(٢) لم يذكر الأخرى.

(٣) انظر الحياة العلمية في بغداد د/ مريزن عسيري ص.١٩٣ – ١٩٣. مختصرأخبار الخلفاء لابن الساعي ص.١٢٧. وتأريخ ابن خلدون ٥٣٧/٣. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥١/٧.

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي ص. ٢٦٦ – ٣٦٧.

شئونها، ولهم إدرارات خصصت لهم من وقوف المدرسة[1].

ويذكر القفطي في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء (هذا الكتاب لابنه علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة (٦٤٦هـ) أن الخليفة الناصر لدين الله العباسي، كان له خزانة كتب جليلة، أوقف جزء منها، على خزانة دار المسناة (المسناة: منطقة ببغداد معروفة قرب النهر، وتسمى عند العامة المسناية، وبها نزل الملك فيصل الأول أوائل هذا القرن، وبها كانت محكمة المهداوي، وتسمى الآن قصر المسناية) التي استحدثها الخليفة الناصر، و(على) خزانة الرباط الخاتوني، و(على)خزانة المدرسة النظامية.[2]

ومن ذلك دار كتب الوزير ابن شاه مردان بالبصرة، التي أوقفها على طلبة العلم[3].

أما الوزير مؤيد الدين بن القصاب فقد " نشأ مشتغلا بالعلوم والآداب، وبرع في علوم المصرفين، كالحساب ومعرفة المساحات والمقاسات، ثم تبصر بأسباب الوزارة " وقد أنشأ خزانة كتب في درب الخياطين ببغداد[4].

وهناك خزائن الكتب العامة، وتشتمل على الكثير من الكتب الموقوفة على المدارس، والمساجد، والأربطة، ولا شك أن خزائن المدارس، خزائن عامة، فقد كان الطلاب، والعلماء، والأساتذة، يرتادونها، ويستفيدون من خدماتها، ومن المعروف أن خزانة المدرسة النظامية، قد حوت كل نادر، وكل نفيس، في كل فن من المؤلفات، لا سيما وأن هذه الخزانة، قد أوقف عليها – إضافة إلى محتوياتها الأصلية – الكثير من الكتب والمكتبات، فالخليفة الناصر أوقف عليها من خزانته الخاصة، قال ابن الأثير في حوادث عام ٥٨٩هـ " وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله، بعمارة خزانة الكتب النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة، ألوفا لا يوجد مثلها "[5].

ويذكر السبكي في ترجمته لعبد السلام بن بندار القزويني، المتوفى سنة ٤٨٨هـ، أنه أهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء، لم يكن لأحد مثلها، غريب الحديث لإبراهيم الحربي، في عشر مجلدات، فوقفه نظام

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ٩/٦٦.
(٢) أخبار العلماء للقفطي ص. ١٧٧.
(٣) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١٥٣ الكامل لأثير ٨/ ١٥٣.
(٤) الحياة العلمية في بغداد د/ مريزن عسيري نقلا عن خزائن الكتب القديمة في بغداد كوركيس عواد ص. ١٨٣.
(٥) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٢٩.عسيري

الملك بدار الكتب ببغداد[1].

كما أوقف المؤرخ، محب الدين بن النجار، المتوفى سنة (٦٤٣هـ) خزانتين من الكتب بالنظامية، تساوي ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفة المعتصم[2]

وذكر ابن الجوزي: أن هذه الخزانة كانت تحتوي على ستة آلاف مجلد، في مختلف الفنون، حينما كان يرتادها[3]

أما خزانة كتب مدرسة أبي حنيفة ﷺ، التي أنشأها المستوفي شرف الملك، أبو منصور، العميد الخوارزمي، والتي افتتحت عام (٤٥٩هـ)، فقد احتوت على نفائس الكتب والمصنفات التي أوقفت على طلبة العلم،[4].

ولأهمية هذه المكتبة، فقد ذكر ابن الساعي البغدادي، نصا يشير إلى تولي ضياء الدين أبي الفضل، أحمد بن مسعود التركستاني، أمر الخزانة قال فيه:"وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضا ذلك بفهرسته، متطلبا ماعساه قد شذ منها، وليأمر خازنها بعد استصلاحه، بمراعاتها ونفضها، في كل وقت، وأن لا يخرج منها شيئا، إلا إلى ذي أمانة، مستظهرا بالرهن على ذلك[5]

ويظهر أنه قد أوقف على هذه الخزانة الكثير من الكتب، خلال فترات مختلفة، إذ تذكر المصادر: أنه في إحدى المناسبات، أوقف عليها مجموعة كبيرة من الكتب: منها تفسير كبير يقع في ثلاثمائة مجلد، لأبي يوسف عبد السلام بن محمد بن بندار القزويني، المتوفى سنة (٤٨٨هـ) أوقفه مؤلفه على طلبة العلم بهذه الخزانة[6] كما أن ابن جزلة الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٩٣هـ) لما مرض مرض الموت، أوقف جميع محتويات مكتبته، على خزانة مدرسة مشهد الإمام أبي حنيفة[7] ومنها خزانة كتب الوقف

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٣٠.عسيري١٩٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ١٦٦.

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي ٣٦٦ — ٣٦٧.

(٤) أول مدرسة أنشئت في العراق مدرسة أبي حنيفة مصطفى جواد عن مجلة المعلم الجديد ٦/ ٣٨. وصيد الخاطر لابن الجوزي ٣٦٧.

(٥) الجامع المختصر لابن الساعي ٩/٢٣٦.

(٦) الشذرات لابن العماد٣/ ٢٨٥.

(٧) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١١٩.

بمسجد الزيدي ببغداد[1]، والتي وقفها الشريف أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزيدي المتوفى سنة (٥٧٥هـ)، وكان أحد الأعلام العلماء، ويذكر سبط ابن الجوزي: أنه اشترى دارا بدرب دينار الصغير ببغداد، وبناها مسجدا، واشترى كتبا، ووقفها على المسجد، لينتفع الناس بها[2]، كما أوقف أبو الخير صبيح بن عبد الله الحبشي المتوفى سنة (٥٨٤هـ) كتبا كثيرة بمسجد الزيدي، وكذلك أبو الخطاب العلمي عمر بن محمد بن عبد الله الدمشقي، الذي قدم بغداد عام٥٥٩هـ فقد عاهد الشريف الزيدي، على وقف كتبه بمسجد الزيدي، فأرسلها بعد(قبل) وفاته، عام ٥٧٤هـ، أما ياقوت الحموي، فقد كان يملك مكتبة ثمينة، احتوت على العديد من النفائس، أوقفها كذلك على مسجد الزيدي بدرب دينار[3].

وكان الخطيب البغدادي الحافظ أحمد بن علي، يمتلك مكتبة ضخمة أوقفها على المسلمين[4].

وكذلك أبو الحسن محمد بن هلال الصابي، الملقب بغرس النعمة، المتوفى سنة (٤٨٠هـ) فقد ابتنى بشارع ابن أبي عوف دار كتب، وأوقف فيها نحوا من أربعمائة مجلد، في فنون العلوم، ورتب بها خازنا، يقال له ابن الأقساسي العلمي،وتكرر إليها العلماء سنين كثيرة[5] أما ابن كثير فقد ذكر أن عدد الكتب التي أوقفها غرس النعمة، أربعة آلاف مجلد[6].

وكذلك المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي المغربي الأندلسي المتوفى سنة (٤٨٨هـ)، فقد كانت له خزانة كتب أوقفها على طلبة العلم[7]

ويمكن أن نشير إلى المؤرخ الطبيب المشهور بابن المارستانية، أبي بكر مجد الدين عبيد الله بن علي بن حمزة البغدادي المتوفى سنة (٥٩٩هـ) الذي كان "قد قوي جاهه وبنى دارا بدرب الشاكرية،

---

(١) معروف ببغداد ويسمى بمسجد القبلانية وهو داخل السوق التجاري ببغداد، ويسمى درب دينار الصغير الآن بشارع المأمون، وهو في الرصافة.

(٢) مرآة الجنان لسبط ابن الجوزي ٨/٢٢٧,و٨/ ٣٥٦

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ١٢٧.

(٤) معجم البلدان ياقوت الحموي ١/ ٢٥٩.

(٥) المنتظم ٩/ ٤٢ومجمع الآداب لابن الفوطي ٢/ ١١٦٣.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٣١٦.

(٧) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ٩٦.

وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب، أوقفها على طلاب العلم"[1] ويذكر ابن جبير في رحلته إلى مصر، وبعد أن اطلع على أحوال مكتبتها، ودور العلم فيها، وعاش في البعض منها، واستفاد من أموالها الموقوفة، ما يلي:

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره، (أي مصر) أن الأماكن في هذه المكتبات قد خصصت لأهل العلم فيهم، فهم يفدون من أقطار نائية، فيلقى كل واحد منهم مأوى يأوي إليه، ومالا يصلح أحواله جميعا، وبلغ من عناية السلطان بهؤلاء الذين يفدون للاستفادة العلمية، أنه أمر بتعيين حمامات يستحمون بها، وخصص لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم، وخصص لهم أطباء يزورونهم، وهم في مجالسهم العلمية، وخصص لهم الخدم لقضاء حاجاتهم الأخرى[2].

ومن المكتبات التي لعبت دورا حضاريا مهما في التأريخ الإسلامي، هي المكتبة التي بناها وأوقفها بنو عمار في طرابلس بالشام، وكانت آية في السعة والضخامة، إذ كان عدد النساخين فيها بلغ ١٨٠ ناسخا، يتناوبون العمل ليل نهار، بحيث لا ينقطع النسخ فيها، ويقال إنها حوت مليون كتاب، على أرجح الأقوال.

خدمة الأوقاف للتعليم والثقافة:

مما لاشك فيه أن هذه المساجد وهذه المدارس والمكتبات ما كانت لتصمد مع الزمن وعواديه لولا جرايات الأوقاف المتصلة، التي تجري على مدرسيها وعلى طلابها، ولذلك فإن الكثير من دور العلم خربت لما لم يكن لها أوقاف، أو كانت لها أوقاف ولكن لم يقم الناظر بالأمر على ما يرام، فقد ذكر المقريزي في خططه أن هناك عددا من المدارس تم إنشاؤها وتأسيسها ولكنها عجزت عن أن تزاول أعمالها التعليمية لعدم وجود أوقاف ينفق عليها من ريعها وعوائدها[3]، ويقول عن المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون (وقد أحاط بها الخراب، ولولا ما يتحصل منها الفقهاء لدثرت)[4].

وبين أن المدرسة الناصرية ثبتت على عوادي الزمن لوجود الأوقاف فقال (لولا ما يتناوله الفقهاء

(١) المختصر المحتاج إليه للذهبي ٢/ ١٨٧.

(٢) البر والمواساة في المجتمع الإسلامي، اسامة عاتوتيص. ٦١.

(٣) الخطط المقريزية للمقريزي ٢/ ٣٧٤.

(٤) الخطط المقريزية ٢/ ٢٦٢

من المعلوم لخربت)[1].

وكذلك كانت حال المدرسة الصباحية البهائية، حيث انهارت بعد وفاة من كان يرعاها ويهتم بها وما ذلك إلا لأن الأوقاف التي كانت عليها، قد أخذت و لم تؤد كما كانت تؤدى سابقا، فتعطلت واندثرت بعد أن كانت من أعظم المدارس وأجلها كما يقول المقريزي[2].

ويذكر المقريزي أن جامع آن سنقرالذي أنشأه هذا المملوكي وأنشأ فيه مكتبا للأيتام، وجعل فيه ماء للشاربين، وجعل فيه أيضا دروسا للفقهاء، كان هذا المسجد يؤدي دوره على أفضل وجه، ولكن لما حدثت الفتنة في الشام، وتوقفت الأوقاف التي كان قد أوقفها عليها، تعطل كل من الجامع والمدرسة، وتوقفت كل الأنشطة التي كانت موجودة فيه و لم يبق إلا الصلاة في الجامع[3].

وعلى خلاف ذلك يذكر الإمام السيوطي أن المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة هـ، كانت عامرة، وكان ينفق عليها مما كان لها من أوقاف، وبقي المشايخ يتناوبون على التدريس فيها حتى بعد سنة أربع وأربعين وثمانمائة بكثير[4].

وذكر المدرسة الكاملية وهي دار الحديث، وقبلها دار الحديث التي بالشيخونية بناها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار سنة إحدى وعشرين وستمائة، ثم ذكر من تولى بها التدريس حتى ذكر أن آخرهم كان الشيخ سراج الدين بن الملقن المتوفى سنة (٨٠٤هـ).

وكل ذلك بفضل الله ثم بفضل الأوقاف التي أرصدت لهذه المؤسسات.

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٣٦٨.
(٢) المدر نفسه ٢/ ٢٧٠.
(٣) المصدر نفسه ٢/ ٣٠٩.
(٤) حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة للإمام السيوطي ٢/ ٢٥٧-٢٥٩.

الخـــاتمة

لقد لعب الوقف الإسلامي بنوعيه -سواء كان وقفا خيريا أم وقفا ذريا أهليا- دورا رئيسا في نشر التعليم والتربية، وفي التقدم العلمي، الذي شهدته الحضارة العربية الإسلامية، فقد كان السبب الرئيس لأغلب الإنجازات العلمية والحضارية، التي شهدها العالم في العهد الوسيط... وكان المسجد هو اللبنة الأولى للتعليم والتدريس، و لم تكن المساجد إلا منشآت وقفية، فأول وقف في الإسلام، هو المسجد الذي بناه سيدنا رسول الله ﷺ عند دخوله المدينة، وهو مسجد قباء، الذي بدأ فيه المسلمون تعلم القرآن، وتعلم الكتابة والقراءة، كما ألحق -فيما بعد- بالمساجد، وأسس إلى جانبها كتاتيب، تشبه المدارس الإبتدائية في العصر الحالي، لتعليم القراءة، والكتابة، واللغة العربية، والعلوم الرياضية.[1]

وقد بلغت الكتاتيب التي تم تمويلها من أموال الأوقاف، عددا كبيرا، فمثلا عد ابن حوقل منها ثلاثمائة كتابا في مدينة واحدة من مدن صقلية، كما أورد ذلك في كتابه الجغرافي، وذكر أن الكتاب الواحد كان يتسع للمئات أو الآلاف من الطلبة , وذكر أبو القاسم البلخي، مدرسة فيما وراء النهر، كانت تتسع لثلاثة آلاف طالب ينفق، عليهم وعلى الدراسة فيها من أموال موقوفة لذلك الغرض[2].

و لم يقتصر تأثير الوقف الإسلامي على المسجد لوحده، إذ إن الروح الدينية لدى المسلمين، عندما كان الإسلام مسيطرا على أذهان الناس، ونابضا بالحياة، نجد بأنهم قد وسعوا من هذه الأنشطة الاقتصادية، من أجل تطوير مجتمعهم، فأنشأوا من أموال الأوقاف المستشفيات العديدة ، التي كانت المصدر الرئيسي للعناية بصحة الإنسان المسلم، كما اهتمت بالتعليم الطبي، الذي فاق من سبقه، وبقي هاديا ومرشدا للنهضة الأوربية في نهضتها الحديثة... الخ[3].

ونجد أن نظام المدارس، والتخصصات التي انتشرت بعد نمو المعرفة الإسلامية، قد اعتمدت كليا على الأموال الوقفية ؛ إذ لم يكن هناك وزارة للتعليم، أو تخصيصات في ميزانية الدولة، بل إن أغلب فقهاء المسلمين، ترعرعوا ونشأوا على ما وضع من أموال الوقف تحت تصرفهم، وسهل لهم حياة

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف د/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣١ نقلا عن من روائع حضارتنا لمصطفى السباعي ص. ١٢٩ ضمن بحوث في كتاب إدراة وتثمير ممتلكات الآوقاف

(٢) الدور الاجتماعي للوقف د/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣١ — ٢٣٢.

(٣) المرجع أعلاه ص. ٢٢٨ - ٢٢٩

التطور، ليس في علوم الشريعة فحسب بل، للاندماج في كل فنون المعرفة، التي يمكن تصورها في زمانهم، ولقد كان للخدمات العامة نصيب واسع من نشاطات الوقف، فنمت شبكة للطرق واسعة ربطت مشرق العالم الإسلامي بمغربه، وأنشأت الموائل (كالفنادق) والخانات لإيواء المسافرين من فقرائهم أو من تجارهم، في حلهم وترحالهم، كل ذلك مجانا من الوقف على هذه الخدمات... كما أوقف المسلمون العديد من الوقوف على المكتبات، وجمعوا الكتب من أطراف الدنيا، وبذلك ساهموا في تشعب المعرفة وتطورها، وفي صناعة الكتاب وتطوره، وفي تطوير صناعة الورق والخط وتحسينه،

ولولا هذه الأوقاف التي تنافس فيها المسلمون، لما وجدت مراكز العلم التي ذكرناها، وهي المساجد والمدرس والمكتبات، ولقد رأينا كيف أثرت هذه الأوقاف في إنشاء هذه المراكز واستمرارها، للقيام بدورها الكبير، حتى أثمرت علما غزيرا، أضاء العالم الإسلامي، بل سطع نوره على العالم أجمع، واستفادت منه البشرية بأسرها، وحسبك أن المساجد والتي هي وقف خيري أنتجت مثل فلان وفلان وفلان[1] والله أعلم

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

(١) نفسه ٢٢٩ – ٢٣٠ بتصرف

أهم المراجع
حسب الموجود في الكتاب

- أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات

أ.د/ صالح بن غانم السدلان، أستاذ الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، نـدوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية، ١٤٢٠هـ

- أحكام الأوقاف.

للشيخ أحمد مصطفى الزرقا، ط٢، ١٤١٩هـ دار عمار.

- أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية

د/ محمد عبيد الكبيسي، مطبعة الإرشاد بغداد ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م. الجمهورية العراقيـة، وزارة الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي.

- الأخبار الطوال.

الإمام أبو حنيفة، أحمد بن داود الدينوري ت٢٨١هـ، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعـة جمـال الدين الشيال، ١٩٦٠م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ودار المسيرة بيروت.

- الإسعاف في أحكام الأوقاف،

الإمام برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أبي بكر الطرابلسي. مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة.

- الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية

الأستاذ أنور الرفاعي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، دار الفكر بيروت.

- الأم.

محمد بن إدريس الشافعي ت٢٠٤هـ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الفكر، بيروت.

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تأريخ مصر وجغرافيتها

ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن ايدمر القاهري الحنفي صارم الدين ت٨٠٩هـ، تحقيق لجنة إحيـاء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة.

- أنساب الأشراف.

أحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق أحمد حميد الله، ١٩٥٩م دار المعارف بالقاهرة.

- بحث في الأوقاف.

للدكتور حسن عبد الله الأمين منشور في مجلة البنك الإسلامي للتنمية المركز الإسلامي للبحوث والتدريب، وقائع الحلقة لتثمير الأوقاف، التي عقدت بجدة، من ٢٠/٣/ ١٤٠٤هـ وحتى ٢/٤/١٤٠٤هـ.

- البداية والنهاية.

لابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثيرالقرشي الدمشقي، ت٧٧٤هـ، ط٢، ١٤١١هـ ١٩٩٠م مكتبة المعارف بيروت.

- بيوت الله.

مأمون غريب. الناشر مكتبة غريب.

- تأريخ الجامع الأزهر.

محمد عبد الله عنان. ط٢، ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م

- تأريخ جامع الزيتونة.

محمد عثمان الحشائشي، تحقيق وتقديم، الجيلاني بن الحاج يحيى ١٩٧٤م المعهد القومي للآثار مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

- تأريخ خليفة خياط.

تحقيق د/ أكرم ضياء العمري، ط١، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.

- تأريخ القانون.

د/ هاشم حافظ، مطبعة العاني، بغداد.

- تأريخ القانون المصري القديم.

د/ شفيق شحاته، المطبعة العالمية، القاهرة مصر.

- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير).
أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ، عيسى الحلبي.

- الجامع الأموي في دمشق
الشيخ علي الطنطاوي، ط٢، ١٢٨٠هـ - ١٩٦١م دار الفكر دمشق.

- جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي
الأستاذ الطاهر المعموري، ١٩٨٠م، الدار العربية للكتاب.

- حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة.
الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١هـ. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م. عيسى الحلبي القاهرة.

- الخطط المقريزية = المواعظ والاعتبار يأتي.

- الدر المختار شرح تنوير الأبصار
علاء الدين محمد بن علي بن محمد بن علي الحصكفي ت١٠٨٨هـ. دار إحياء التراث العربي.

- الدور الاجتماعي للوقف
د/ عبد الملك أحمد السيد، بحث في إدارة وتثمير الأوقاف الحلقة الدراسية التي عقدت في الفترة من٢٠/٣/١٤٠٤-٢/٤/١٤٠٤هـ

- رحلة ابن بطوطة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
دار التراث العربي بيروت.

- رحلة ابن جبير.
دار صادر بيروت.

- رحلة ناصر خسرو (سفر نامة).
ترجمة وتقديم د/ أحمد خالد البدلي، الناشر، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الرياض.

- رد المحتار حاشية على الدر المختار .

محمد أمين بن عمر بن عابدين ت١٢٥٨هـ. مطبوع مع الدر المختار، دار إحياء التراث العربي

- رسالة المسجد في الإسلام

د/ عبد العزيز محمد اللميلم، ط٤، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. مؤسسة الرسالة بيروت.

- السنن الكبرى.

للبيهقي أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وبهامشه الجوهر النقي لابن التركماني، دار الفكر، بيروت.

- سنن ابن ماجه

أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٣هـ. ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، الطباعة العربية السعودية.

- شرح السنة

أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت٥١٦هـ. تحقيق شعيب الإرناؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

- شرح منتهى الإرادات.

منصور بن يونس بن إدريس البهوتي ت١٠٥٥هـ، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

- صحيح البخاري.

محمد بن إسماعيل البخاري، ت٢٥٦هـ. المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.

- صحيح مسلم.

مسلم بن الحجاج النيسابوري ت٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

الإمام أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ت١٠٨٩هـ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م دار الفكر بيروت.

- طبقات الشافعية الكبرى.

الإمام عبد الوهاب بن علي السبكي الشافعي ت.٧٧١هـ، ط١، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م عيسى الحلبي القاهرة.

- القاموس المحيط.

الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي ت٨١٧هـ، دار الفكر بيروت.

- المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس.

لابن أبي دينار، أبي عبد الله محمد بن أبي قاسم القيرواني، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة.

- محاضرات في الوقف .

الإمام محمد أحمد أبو زهرة، دار الفكر بيروت.

- المدخل إلى الآثار الإسلامية

د/ حسن الباشا، دار النهضة العربية ١٩٧٩م.

- مدونة جوستنيان في الفقه الروماني.

تعريب عبد العزيز فهمي، مطبعة دار النهضة المصرية ١٩٤٦م.

- المساجد

د/حسين مؤنس، عالم المعرفة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت

- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

د/ سعاد ماهر محمد ١٩٧١هـ. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

ابن فضل الله العمري، تحقيق، أحمد زكي باشا، ١٣٤٢هـ-١٩٣٤م مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

- المسجد وأثره في المجتمع.
د/ علي عبد الحليم محمود، دار المعارف، مصر.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي.
الإمام أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت٧٧٠هـ. صححه مصطفى الزرقا، دار الفكر بيروت.

- معجم البلدان.
الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت٦٢٦هـ تحقيق الأستاذ فريد عبد العزيز الجندي. ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية بيروت.

- المقاييس في اللغة.
الإمام أحمد بن فارس ت٣٩٥هـ، حققه شهاب الدين أبو عمرو، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م دار الفكر بيروت.

- المنتظم في تأريخ الملوك والأمم.
ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت٥٩٧هـ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م المكتب الإسلامي بيروت

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية.
المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ دار صادر بيروت.

- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل.
محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب ت٩٥٤هـ. ط٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الفكر بيروت.

- موسوعة التأريخ الإسلامي.
د/ أحمد شلبي، ط١، ١٩٧٣م مكتبة النهضة المصرية.

- نصب الراية لأحاديث الهداية

عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي ت٧٦٢هـ، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، المكتبة الإسلامية الرياض

- الوقف في الشريعة والقانون.

الأستاذ زهدي يكن، ١٣٨٨هـ. دار النهضة العربية بيروت لبنان.

- الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية.

الأستاذ محمد سلام مدكور، المطبعة العالمية القاهرة ١٣٨٠هـ -١٩٦١م.